غير مرخصة للطباعة

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُف القَرَضَاوِي

المجلد التاسع والعشرون

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م

نسخة مجانية

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُف القَرَضَاوِي

غير مرخصة للطباعة

المِحْوَرُ الثَّالِثُ

الفِقْهُ وَأُصُولُهُ

فِقْهُ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ

٥٩ الوطن والمواطنة

٦٠ القدس قضية كل مسلم

٦١ الإسلام والعنف
نظرات تأصيلية

٦٢ الرد العلمي على شيخ
الأزهر ومفتي العسكر

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِي

المحور الثالث

الفقه وأصوله

(فقه السِّياسة الشرعية)

٥٩

الوطن والمواطنة

في ضوء الأصول العقدية والمقاصد الشرعية

الإمـام يوسف القرضاوي

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

من الدستور الإلهي للبشرية

﴿ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴾ [الأعراف: ٢٤].

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨].

غير مرخص للطباعة

من مشكاة النبوة الخاتمة

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**اللهم حبِّبْ إلينا المدينة كحُبِّنَا مكة أو أشد!**» متفق عليه.

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لمكة: «**ما أطيَبَكِ من بلد، وأحبَّكِ إليَّ! ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك**» رواه الترمذي.

عن عليٍّ قال: ما عهد إليَّ رسول الله ﷺ شيئًا خاصة دون الناس، إلَّا شيء سمعته منه فهو في صحيفة في قراب سيفي، قال: فلم يزالوا به حتى أخرج الصحيفة، قال: فإذا فيها: «**... المؤمنون تتكافأُ دماؤهم، ويسعى بذِمَّتِهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم**» رواه أحمد وأبو داود.

عن حُذَيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لم يُصْبِحْ ويُمْسِ ناصحًا لله ولرسوله ولكتابه ولإمامه ولعامة المسلمين فليس منهم**» رواه الطبراني.

غير مرخص للطباعة
نسخة تجريبية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطبع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على إمام المتقين، وخاتم النبيِّين، سيدنا محمد الرسول الأمين، وعلى سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه ومَن اتَّبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

(أما بعد)

فقد طلبت إليَّ الأمانة العامة للمجلس الأوربي للإفتاء والبحوث: أن أكتب بحثًا حول «الوطن والمواطنة» وما يتعلَّق بهما من أحكام شرعية، في إطار عَقَدي ومقاصدي. لتفتتح به الندوة الفكرية الفقهية، التي تعقدها الأمانة حول موضوع المواطنة والاندماج بالنسبة للأقليَّات المسلمة في أوربا وغيرها، نظرًا لما يثور حول هذه القضية الحسَّاسة من التباسات، وما يثار من تساؤلات، وما تتعارض به الإجابات، لتعارض الاجتهادات، واختلاف الدلالات.

وقد استعنتُ بالله تعالى، وكتبتُ هذه الصحائف، مستهديًا بكتاب الله، وبسُنَّة رسول الله ﷺ، ومغترفًا من بحر تراثنا الزاخر، الفقهي والأصولي والحديثي والتفسيري، ومتأمِّلًا في الواقع وما يمور به من تيارات فكرية، وأحداث واقعية، ومواقف سياسية، واضطرابات بشرية.

QaradawiBooks.com

رابطًا الفروع بأصولها، والظواهر بمقاصدها، جامعًا بين فقه النصِّ، وفقه الواقع، مبتهلًا إلى الله تعالى أن يرزقنا نورًا نمشي به في الظلمات، وفرقانًا نميِّز به بين المتشابهات.

وقد رأيتُ أن أجعل هذه الدراسة في تمهيد حول الوطن والمواطنة، ثم في فصل أول عن مواطنة المسلم وغير المسلم في المجتمع المسلم، ثم في فصل ثانٍ وأخير عن مواطنة المسلم في غير المجتمع المسلم.

أرجو أن أكون قد وفِّقتُ في إلقاء شعاع من ضوء على هذه القضية الكبيرة، يسهم في تجلية حقيقتها، وبيان خلاصة أحكامها، ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

الفقير إليه تعالى

يوسف القرضاوي

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإمَامِ
يُوسُف القَرَضَاوِي

تمهيدات
حول الوطن والمواطنة

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

تعريف الوطن والمواطنة

الوطن والمواطنة في اللغة:

قال في القاموس: الوطن: منزل الإقامة (كالمَوطِن)، جمعه: أوطان. ووَطَن بـــه، وأَوطَن: أقام. وأَوطَنه إيطانًا، ووطَّنه توطينًا، واســـتوطنه: إذا اتَّخذه وطنًا، أي مَحَلًّا ومسكنًا يُقيم فيه. وواطنه على الأمر: أضمر فعله معه. فإن أراد معنى (وافقه) قال: واطأه. قال: وهو مجاز[١].

وفي «المعجم الوسيط»: الوطن: مكان إقامة الإنسان ومقرُّه، ولد به أو لم يولد.

وممَّا استدركه شارح القاموس على القاموس: توطَّنه، وتوطَّن به[٢].

والغريب في هذه الاشـــتقاقات كلِّها: أنَّها لم يجئ فيها فعل (واطن) الذي اشتُقَّ منه اسم الفاعل (مواطن)، والذي مصدره القياسي (مواطنة).

وإنَّما جاء (واطن) بمعنى آخر مجازي بعيد عن المفهوم الذي نحن بصدده.

(١) انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي، وشرحه تاج العروس مادة (و.ط.ن).
(٢) تاج العروس مادة (و.ط.ن).

QaradawiBooks.com

ولهذا قال في «المعجم الوسيط» الذي أصدره مجمع اللغة العربية: واطَن القوم: عاش معهم فـي وطن واحد «محدثة»[١]. أي ليس لها أصل في كتب اللغة.

و«الوطنية»: مصدر صناعي منسوب إلى الوطن، كما يقال: «القومية» نسـبة إلى القوم، و«العالمية» نسبة إلى العالَم، و«الإنسـانية» نسبة إلى الإنسـان. وكثير من هـذه المفاهيم والمصطلحات هي مـن هذا النوع: مصادر صناعية، قد تزاد فيها أحيانًا ألف ونون، مثل: النفسانية، نسبة إلى النفس، والعِلمانية نسبة إلى العِلْم، والشخصانية نسبة إلى الشخص.

* * *

غير مرخصة للطباعة

(١) المعجم الوسيط مادة (و.ط.ن).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الوطن والمواطنة

كان آدم وزوجه يسكنان الجنة، ويأكلان منها رغدًا حيث شاءا، وكانت كلُّ حاجتهما مكفيَّة، كما قال الله تعالى لآدم في الجنة: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩].

فلمَّا أهبط الله آدم وزوجه من الجنة، ليقوما وذريتهما بما قُدِّر لهم من الخلافة في الأرض وعمارتها، وعبادة الله فيها: كانت الأرض مهيَّأة لتكون كلُّها وطنًا ومستقرًّا لآدم وذريَّته من بعده، ولهذا قال الله تعالى في القرآن مخاطبًا آدم وزوجه وإبليس معهما: ﴿ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤].

وهكذا كانت الأرض كلُّها في أول الأمر وطنًا لآدم وأولاده، لا تزاحم ولا تنافس، ولا اختصاص بمكان دون مكان.

فلما كثرت ذرية آدم وانتشرت، بدأ الناس يتجمَّعون في أماكن بحكم الطبيعة الاجتماعية للبشر، حتى قال الأقدمون: الإنسان مدني بطبعه. وقال المُحْدَثون والمعاصرون: الإنسان حيوان اجتماعي.

وكان الناس يتجمَّعون في بلدان أو قرى، ويتَّخذ كلٌّ منهم لنفسه ولأهله وولده بيتًا، يأوي إليه، يكنُّه من القُرِّ والحرِّ، ويستره من أعين الناس، ويمارس فيه خصوصيته. ومن مجموع هذه البيوت تتكوَّن القرية، التي

QaradawiBooks.com

يترابط أهلها فيما بينهم بروابط شتَّى: كالنسب والمصاهرة والجوار والصداقة والزمالة في العمل، والاشتراك في تأمين حاجات القرية، والدفاع عنها.

ومن هذه القرية أو البلدة أو المدينة: بـــدأت قضية «الوطن». فحين تعدَّدت البلدان والقرى، واضطرَّ الإنســـان لسبب أو لآخر أن يهاجر من بلده، لم ينسَ الموضع الأول الذي عاش فيه، وكوَّن به علاقات حميمة، من أهل وأصهار وأقارب وأصدقاء وأحبَّة، وأمسى مرتبطًا عاطفيًّا بذلك المكان وأهله، كما عبَّر عن ذلك أبو تمام بقوله:

نقِّل فؤادك حيث شئتَ من الهوى ما الحـــبُّ إلَّا للحبيـــب الأول!
كم منزل في الأرض يسكنه الفتى وحـنينـــه أبـــدًا لأول منـــزل[1]!

وكان الوطـــن أول الأمر يتعلَّق بتلـــك القرية أو المدينـــة، ثم لما تطوَّرت حياة البشـــر وعلاقاتهم، تكوَّنت أوطان أكبر من ذلك، تشمل إقليمًا كبيرًا، ثم عدَّة أقاليم تنتظم تحت سلطان واحد يجمعها: ديني أو اجتماعي أو سياسي.

على كلِّ حال، نرى فكرة «الوطن والوطنية» تقوم على حاجة الإنسان إلى المكان وارتباطه به، وهذا أمر طبيعـــي، فكلُّ كائن حيٍّ محتاج إلى مكان أو مأوى يلوذ به، فالوحوش لها جحورها، والطير لها أعشاشـــها. وقد نرى الطيور والأســـماك ونحوها تســـير المســـافات الشاسعة، وقد تختـــرق البحار والمحيطـــات، ثم تعود إلـــى أماكنها الأولـــى، أي إلى أوطانها، لا تضلُّ طريقها إليها، بحاسة الهداية العامة التي منحها الله لكلِّ مخلوقاته: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠].

(١) انظر: شرح ديوان أبي تمام للتبريزي (٢/٢٩٠)، تقديم وفهرسة راجي السمر، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٤م.

QaradawiBooks.com

الحنين إلى الوطن فطرة:

ومن هنا كان حبُّ الوطن والحنينُ إليه فطرةً بشـــريَّة، يشـــترك فيها الناس عامة، مؤمنهم وكافرهم، عربهم وعجمهم، أبيضهم وأسودهم.

وقد قال ابن الرُّومي[١]:

وحبَّب أوطـــانَ الرجـــالِ إليهمُو مـــآربُ قضَّاها الشـــبابُ هنـــالكَا
إذا ذكـــروا أوطانَهـــم ذكَّرتهُمُـــو عُهودَ الصِّبَا فيهـــا، فحنُّوا لذلكَا

وحين هاجر الرســـول ﷺ وأصحابه من مكة إلى المدينة، كانوا يحنُّون إلى مكة، ويشـــعرون بالشـــوق إليها، إلى ربوعهـــا وجبالها ووديانها، وكلِّ ما فيها.. فقد مرض بلال رضي الله عنه، فدخل عليه الرســـول وهو ينشد ويقول:

ألا ليتَ شِـــعْري: هل أبيتنَّ ليلةً بـــوادٍ، وحولي إذْخِـــرٌ وجَلِيلُ؟
وهـــل أَرِدَنْ يومًـــا مِيـــاهَ مَجَنَّـــةٍ وهل يبدُوَنْ لي شَـــامَةٌ وطَفِيلُ؟

يتمنَّى بلال أن يســـعده القدر يومًا بليلةٍ يبيت فيها بهذا الوادي الذي قال عنه القرآن: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وحوله حشيش الإذخر، وأن يجود عليه الدهر، فيَرِد مياه مَجَنَّة بمكة، ويظهر له شـــامة وطفيل، وهما من جبال مكة.

وهنا دعا النبي ﷺ ربه: وقال: «**اللهمَّ حبِّب إلينا المدينة، كما حبَّبتَ مكة أو أشدَّ...**»[٢].

(١) ديوان ابن الرومي (١٤/٣)، شـــرح أحمد حسن بسج، نشـــر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٣، ٢٠٠٢م.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في فضائل المدينة (١٨٨٩)، ومسلم في الحج (١٣٧٦)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

ولقد قال النبـــي ﷺ، مخاطبًا بلده وموطنه مكـــة عند خروجه منها مهاجرًا: «**والله، إنك لأحبُّ بـــلاد الله إلى الله، وأحبُّ بلاد الله إليَّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما خرجتُ**»(١).

وإنَّما أخرجوه منها، لأنَّه تمسَّك بعقيدة التوحيد التي بعث بها، ولم يفرِّط فيها، ومن أجله ضحَّى بوطنه؛ لأنَّ الدين في نظر المؤمن به أغلى من كل شيء، ولو كان وطنه أغلى من عقيدته لتنازل عن عقيدته، حتى لا يفقد وطنه.

بل إنَّ القرآن ليفرض على المسلم الهجرة من وطنه الذي يُظلم فيه، ولا يمكَّن من إقامة فرائض ربِّه وشـــعائر دينه، باحثًا عن مكان آخر في أرض الله الواسعة، يجد فيها حريته الدينية، وإذا لم يفعل ذلك، كان آثمًا عند الله؛ لرضاه بالهوان لنفسه ودينه طائعًا مختارًا، ما لم يكن عاجزًا عن الهجرة لسبب من الأسباب، فهذا يُرجى له أن يعفوَ الله عنه.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۞ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۞ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء: ٩٧ ـ ٩٩].

فانظر لهذا الوعيد الشديد الذي تضمَّنته الآية الأولى لمَن رضي بالظلم وأعرض عن الهجرة: ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ٩٧]. وانظر

(١) رواه الترمذي فـــي المناقب (٣٩٢٦)، وقال: حســـن صحيح غريب. وابـــن حبان في الحج (٣٧٠٩)، وقال الأرناؤوط: صحيح. والحاكم في المناسك (٤٨٦/١)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

كيف عبَّرت الآية الأخيرة عن جزاء المستضعفين بقوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ [النساء: ٩٩]، فلم تقطع بالعفو عنهم، لتظلَّ نفوس المؤمنين معلَّقة بالهجرة إذا حُرمت من العمل بدينها.

غير مرخصة للطباعة

البدْوُ والوطن:

والبدو أقلُّ الناس إحساسًا بالوطن، لعدم استقرارهم ببقعة معيَّنة من الأرض، وترحالهم وراء العشب والكلأ والماء، فهم دائمو التنقل من مكان إلى مكان، كما قال الشاعر:

يومًا بحُزْوَى، ويومًا بالعَقِيقِ وبِالْـ ـعُذَيبِ يومًا، ويومًا بالخُلَيْصَاءِ[1]**!**

ومع هذا نجد لهم اهتمامًا ببعض الأماكن التي حدثت لهم فيها خِبرات معيَّنة، ولا سيما ما يتعلَّق بخفقات القلوب بالحبِّ، وذكريات المشاعر الإنسانية التي تترك آثارها في أغوار الأنفس! ولهذا نرى أشعارهم كثيرًا ما تبدأ بالبكاء على الطُّلُول، وما وراءها من ذكريات لا ينسيها اختلاف الليل والنهار. كما قال امرؤ القيس[2]:

قِفا نَبكِ مِن ذِكرى حَبيبٍ وَمَنزِلِ بِسِقطِ اللِّوى بَينَ الدَّخولِ فَحَومَلِ

وقال طرفة[3]:

لِخَولَةَ أَطلالٌ بِبُرقَةِ ثَهمَدِ تَلوحُ كَباقي الوَشمِ في ظاهِرِ اليَدِ

(١) من شعر أبو محمد الخازن، انظر: الدر الفريد وبيت القصيد (١١/١٠٩، ١١٠)، تحقيق د. كامل سلمان الجبوري، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م.

(٢) مطلع معلقته، انظر: شرح ديوان امرئ القيس صـ ١٦٤، تحقيق حسن السندوبي، نشر دار إحياء العلوم، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ.

(٣) مطلع معلقته، انظر: ديوان طرفة بن العبد صـ ١٩، شرح مهدي محمد ناصر الدين، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٢م.

QaradawiBooks.com

وقال آخر[١]:

لِـمَـيَّـةَ مُـوحِـشًـا طَـلَـلُ يـلـوحُ كـأنَّـه خِـلَـلُ

وهذا يدلُّ على أنَّ الإنسان بدويًّا كان أو حضريًّا لا يمكن أن ينفكَّ تمامًا عن الارتباط بالمكان، وإن بدا رحَّالة طول الزمان!

محنة الإخراج من الوطن:

وارتباط الإنسان بوطنه قوي عميق، ولذا كان انتزاعه منه وإخراجه قسرًا: أشبه بنزع الظفر من اللحم، وهو أمر مجرَّم في كلِّ الشرائع والقوانين. كما تجلَّى ذلك في القرآن الكريم.

فالقرآن يعبِّر عن «وطن» الإنسان أو القوم بكلمة «الديار»، ويرى خروج الإنسان ـ أو إخراجه ـ من دياره: جريمة كبرى، ومحنة عظمى، قرنها القرآن بقتل النفس، فخروج الإنسان من دياره كخروج الرُّوح من البدن، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦].

ويرى القرآن ـ في ضوء ما يعرضه من قصص الأمم الماضية للعبرة ـ أنَّ من حقِّ الإنسان، وحقِّ الشعوب، بل من واجبها: أن تقاتل وتحمل السلاح، لتستردَّ أرضها وديارها ـ وبعبارة أخرى: وطنها ـ إذا أُخرجت منها.

---

(١) قال عبد القادر بن عمر البغدادي: قيل: إنَّه لكُثَيِّر عزّة. وقيل: إنه لذي الرمة؛ فإن عزة اسم محبوبة كُثَيِّر، ومية اسم محبوبة ذي الرمة. انظر: خزانة الأدب ولب لسان العرب (٢١١/٣)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٤، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

QaradawiBooks.com

يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦].

فانظر إلى هذه الجملة ودلالتها: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾، فليس هناك أوجب للقتال وأدعى إلى الحرب، من الإخراج من الديار. وليس هناك أوجب من قتال الذين اغتصبوا الأرض، وأخرجوا منها أهلها، وحلُّوا محلَّهم، ظالمين مستكبرين في الأرض بغير الحقِّ.

وهذا شرُّ ألوان الاستعمار والاستكبار في الأرض: أن يستولي أجنبيٌّ على الأرض، ويطرد أهلها منها، ويحلُّ محلَّهم. فهو «استعمار استيطاني إحلالي»، مثل الاستعمار الصهيوني الإسرائيلي لفلسطين، وقد تفوَّق على الاستعمار الفرنسي في الجزائر، فقد كان استعمارًا استيطانيًّا، جاء ليحتلَّ الأرض ويستوطنها ويقيم فيها مع أهلها، كأنَّما ورثها معهم من أجداده!

ولكنَّ الاستعمار الصهيوني لم يكتفِ بالاستيطان، حتى شرَّد أهل الأرض من وطنهم، وشتَّتهم في الآفاق، وسكن منازلهم، وورث أرضهم ومُدُنهم وقُرَاهم ومزارعهم وبيَّاراتهم، وهم أحياء، وكأنَّما لم يكن لهذه الديار ملَّاك ولا سكَّان!

QaradawiBooks.com

هل يمكن تغيير الوطن؟

الأصل: أنَّ الإنسان لا يختار وطنه، فهناك أشياء مفروضة على الإنسان، لا دور له في اختيارها، بل اختارها له القدر الأعلى الذي يخطُّ مصاير الناس.

وذلك مثل أبوي الإنسان «أبيه وأمه» وفصيلته والجنس الذي ينتمي إليه، ومثل الوطن الذي ينشأ فيه مع والديه وأسرته. فمَن ولد في مصر ونشأ فيها أصبح مصريًّا، وأصبحت مصر وطنه، وكذلك مَن ولد في العراق أو في الشام.

ولكن من الثابت أيضًا: أنَّ الإنسان يمكن أن يغيِّر وطنه، وهذا ما وقع للكثيرين، مختارين أو مضطرِّين، فانتقلوا من وطن إلى وطن، واستبدلوا بالأهل أهلًا، وبالإخوان إخوانًا.

ولعلَّ أقرب مثل لنا في ذلك، هو الرسول ﷺ وأصحابه من أهل مكة: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠]، كما قال القرآن، والذين هاجروا من مكة، وهي أحبُّ البلاد إليهم، وانتقلوا إلى يثرب (المدينة) دار الهجرة، ودار الإسلام، واتَّخذوها لهم مقرًّا وموطنًا، وعاشوا فيها وماتوا بها، ورفضوا أن يعودوا إلى مكة، حتى بعد أن نصرهم الله على عدوهم، وفتحوا مكة، حتى تظلَّ لهم صفة «المهاجرين في سبيل الله» حتى إنَّ سعد بن أبي وقاص، حين مرض بعد فتح مكة مرضًا شديدًا، وعاده النبي ﷺ: شكا إلى الرسول الكريم: أنَّه يخاف أن يموت في مكة ويدفن بها، وتضيع عليه هجرته. فطمأنه النبي عليه السلام: أنَّ الله سيمدُّ في عمره، لينتفع به أقوام، ويتضرَّر به آخرون[1].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٢٩٥)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨)، عن سعد بن أبي وقاص.

QaradawiBooks.com

هل يمكن تعدُّد الوطن؟

وهنا سؤال آخر مكمِّل للسؤال السابق، وهو: هل يمكن أن يتعدَّد وطن الإنسان، بمعنى أن يكون له وطنان مثلًا؟

أعتقد أنَّ هذا ممكن، بحيث يكون للمرء وطن أصلي هو مسقط رأسه، ومرتع صباه، ومسرح شبابه، ثم يهاجر ـ لسبب أو لآخر ـ إلى بلد آخر، فيتَّخذه وطنًا، ربما يستقرُّ فيه إلى آخر حياته. ويموت فيه، ويدفن في ترابه.

وهذا أمر واقع لكثير من الناس، وخصوصًا للعلماء من مختلف التخصصات في تاريخنا الإسلامي، فينتقل من الحجاز إلى الشام، ومن الشام إلى العراق، ومن العراق إلى المغرب، وهكذا. ولكنَّ السؤال الذي يرد هنا: هل تقرُّ ذلك الأعراف السياسية، والأوضاع القانونية اليوم؟

الواقع أنَّ هذا أمر يختلف من بلد إلى آخر، وفق قانون الجنسية والتجنُّس في هذا البلد. فهناك بلاد تجيز ازدواج الجنسية، ولا تمنع مواطنيها من أن يحمل جنسية أخرى. وهناك بلاد تمنع ذلك وتتشدَّد فيه مثل دولة قطر. وهناك بلاد تمنع التجنُّس ببعض جنسيات معيَّنة مع جنسيتها الأصلية، مثل الجزائر، التي تمنع حمل الجنسية الفرنسية خاصة.

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الفصل الأول

مواطنة المسلم وغير المسلم داخل المجتمع المسلم

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

هل للأرض بالمعنى الجغرافي أهمية في نظر الإسلام؟

وهنا سؤال مهم أيضًا، وهو: هل للأرض بالمعنى الجغرافي أهميَّة في نظر الإسلام؟ فقد يتصوَّر بعض الناس: أنَّ الإسلام لا يُعنَى بالأرض، لأنَّ الأرض طين ومادة، وهو يُعنَى بالدين لا بالطين، وبالرُّوح لا بالمادة.

كما أنَّ عنايته الأولى بالإنسان، لا بالتراب الذي يمشي عليه الإنسان.

وهذا التصوُّر غير صحيح بالنسبة للإسلام، الذي يمزج الرُّوح بالمادة، ويعتبر الإنسان مخلوقًا مزدوج الطبيعة: فهو قبضة من طين الأرض ونفخة من رُوح الله، كما حدَّثنا القرآن عن خلق الإنسان الأول آدم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [صٓ: ٧١، ٧٢].

وقد أهبط الله آدم إلى الأرض وسخَّرها له ولذرِّيَّته، وجعلها له مهادًا وفراشًا وبساطًا، وقال: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

وجعل من مهمَّات الإنسان الأساسية: خلافة الله في الأرض، وعمارة الأرض، كما قال تعالى للملائكة: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وقال تعالى على لسان نبيِّه صالح لقومه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

QaradawiBooks.com

وإذا كان هذا شأن الأرض بصفة عامة، فإنَّ الأرض التي يعيش فيها الإنسان ويكون فيها مولده ونشأته وتعليمه وعلاقاته وصداقاته: يكون لها شأن خاص.

وهذا هو أســاس إضافة جزء من الأرض إلى الإنسان أو إلى جماعة من الناس، فيقول الفرد، أو تقول الجماعة: هذه أرضي أو بلدي.

وهذه الأرض أو هذه البلدة، لها حقــوق على أهلها: أن يتعاونوا فيما بينهــم على الخيــر، وأن يتكافلوا في الســرَّاء والضــرَّاء، وأن يتناصروا إذا دهمهم عدوٌّ، يريد أن يحتلَّ أرضهم، ويفرض ســلطانَه عليهم بغير إرادتهم.

والإسلام هنا يتماشى مع الفطرة البشريَّة السليمة، ويوجب على أهل الأرض المتَّصلة أو المتقاربة: أن يتكافلوا ويتعاونوا ويتناصروا، ويرعى بعضهم حقوق بعض.

ومن هنــا كان اهتمام الإســلام بحقوق «الجوار»، كمــا ذكر القرآن الكريــم في آية الحقوق العشــرة، ومنهــا: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ [النســاء: ٣٦]، والجار الجنب: هو البعيد دارًا أو نسبًا، فكلما كان الجار أقرب بابًا من جاره كان حقُّه أوجب.

وجاء في الحديث: «**ليس بمؤمنٍ مَن بات شبعانَ، وجارُه إلى جنْبه جائع**»[1].

(١) رواه البخاري فــي الأدب المفرد (١١٢)، وأبــو يعلى (٢٦٩٩)، والطبرانــي (١٥٤/١٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٥٥٥): رجاله ثقات. وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٤٩)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

وفي أحكام الزكاة: أنَّ جيران المال أولى به من الأبعدين عنه، ولهذا كانت سياسة الإسلام في توزيع الزكاة: أن توزَّع الزكاة محليًّا في كلِّ إقليم، حتى إذا فضلت عن الإقليم، انتقلت إلى أقرب الأقاليم إليه. وبعض الفقهاء حدَّد ذلك بألَّا تنقل الزكاة أكثر من المسافة التي تقصر فيها الصلاة (أي حوالي ثمانين كيلو متر، كما هو رأي عدد من الفقهاء).

ولذلك فرض الإسلام على أهل البلد الواحد إذا غزاهم عدو أن يهبُّوا جميعًا للدفاع عن بلدهم، ويعتبر أئمة الإسلام هذا الدفاع أو هذا الجهاد أو هذه المقاومة: فرض عين على أهل البلد، وعلى المسلمين حولهم أن يعاونوهم بما يحتاجون إليه من مال وسلاح ورجال حسب الحاجة.

ومن هذه الصلات المشتركة، والواجبات المشتركة، والحقوق المشتركة: نشأت فكرة «المواطنة» بين أهل البلد الواحد، وإن اختلفت أنسابهم أو أديانهم.

المواطنة في العهد النبوي:

ومَن قرأ السيرة النبويَّة وأمعن فيها: وجد أنَّ النبيَّ ﷺ قد اعترف بـ «المواطنة» بين سكَّان المدينة من مسلمين مهاجرين وأنصار، من أوس وخزرج، ومن اليهود على اختلاف قبائلهم، معتبرًا هذه المواطنة ـ أي العيش في وطن واحد هو المدينة ـ هي: أساس التعاقد والتعامل بين الجميع. فنحن نعرف من سيرته الثابتة: أنَّه قد عقد بعد هجرته اتفاقية مع يهود المدينة: بني قينقاع، وبني قريظة، وبني النضير، وهي التي تضمَّنتها «الصحيفة» المعروفة في السيرة.

QaradawiBooks.com

وقد بناها على أساس التعايش المشترك، والتكافل المشترك، والتناصر المشترك ـ في السلم والحرب ـ بين المسلمين وجيرانهم من اليهود، باعتبارهم جميعًا مواطنين في دولة المدينة الجديدة، مع اختلاف الأديان التي ينتسبون إليها، والعروق التي ينتمون إليها، بل باعتبار «الوطن» الذي ينتسبون جميعًا إليه.

وها نحن أولاء نضع أمام الباحث عن الحقيقة نصَّ هذه الوثيقة أو الصحيفة التي اعتبرها الكثيرون بمثابة أول دستور ينظِّم العلاقة بين المواطنين ـ مختلفي الديانات ـ في دولة ناشئة هي دولة المدينة.

وننقلها من كتاب «مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة» للعالم الباحث المدقِّق الشهير الدكتور محمد حميد الله، وقد اعتمد على مراجع شتَّى سجَّلها في مطلع الوثيقة[1]، التي جعل عنوانها: كتابه ﷺ بين المهاجرين والأنصار واليهود، وهو دستور الدولة البلدية بالمدينة.

نص الوثيقة (دستور المدينة):

١ ـ هذا كتاب من محمد النبيِّ (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش «وأهل يثرب»، ومَن تبعهم فَلَحق بهم وجاهد معهم.

٢ ـ إنهم أُمَّة واحدة من دون الناس.

(١) انظر: قائمة هذه المصادر في مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة صـ ٣٩ ـ ٤١، نشر دار الإرشاد، بيروت، ط ٣، ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م.

QaradawiBooks.com

٣ ـ المهاجـــرون من قريش علـــى رِبْعَتهم[١] يَتَعَاقلـــون (أي يدفعون الدِّيَات المطلوبة منهم) بينهم وهم يفْدُون عانِيَهم[٢] بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٤ ـ وبنو عَوْف على رِبْعَتهم يتعاقلـــون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانِيَها بالمعروف والقِسْط بين المؤمنين.

٥ ـ وبنو الحارث (ابن الخـــزرج) على رِبْعَتِهـــم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٦ ـ وبنو سَـــاعِدَةَ على رِبْعَتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٧ ـ وبنو جُشَـــمَ على رِبْعَتِهم يتعاقلون مَعَاقِلَهم الأولى، وكلُّ طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٨ ـ وبنو النَّجَّار على رِبْعَتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٩ ـ وبنو عمرو بن عوف على رِبْعَتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١٠ ـ وبنو النَّبِيتِ على رِبْعَتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١١ ـ وبنو الأَوْس على رِبْعَتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

---

(١) الحال التي كانوا عليها قبل الإسلام.

(٢) العاني: الأسير المخذول الذي تركه قومه ولم يواسوه.

QaradawiBooks.com

١٢ ـ وإنَّ المؤمنين لا يتركون مُفْرَحًا[١] بينهم أن يعطوه بالمعروف من فداء أو عَقْل، وألَّا يُحالف مؤمن مَوْلَى مؤمن دونه.

١٣ ـ وإنَّ المؤمنين المتَّقين (أيديهم) علـى (كلِّ) مَن بغى منهم أو ابتغى دَسِيعَة[٢] ظلمٍ أو إثمًا أو عدوانًا أو فسادًا بين المؤمنين، وإنَّ أيديهم عليه جميعًا، ولو كان ولد أحدهم.

١٤ ـ ولا يقتل مؤمنٌ مؤمنًا في كافر، ولا يَنْصر كافرًا على مؤمن.

١٥ ـ وإنَّ ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وأنَّ المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

١٦ ـ وإنَّه مَن تبعنا من يهود فإنَّ له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا مُتَنَاصَرٍ عليهم.

١٧ ـ وإنَّ سِلْمَ المؤمنين واحدة، لا يُسالَم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلَّا على سواء وعدل بينهم.

١٨ ـ وإنَّ كل غازيةٍ غزت يُعْقِب بعضُها بعضًا[٣].

١٩ ـ وإنَّ المؤمنين يُبِيء[٤] بعضُهم علـى بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

---

(١) **المُفْرَح**: المحتاج الفقير. انظر: تاج العروس مادة (ف. ر. ح).

(٢) الدسيعة: ما يخرج من حلق البعير إذا رغا. فاستعاره هنا للعطية، وأراد به هنا ما ينال منهم من ظلم. انظر: الإملاء المختصر في شـرح غريب السير لابن أبي الركب صـ ١٣٥، تحقيق بولس برونله، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) كانت بالمطبوع: يعقب على بعضهم بعضًا، والمثبت الصواب.

(٤) يمنع ويكف. انظر: المختصر في شرح غريب السير الموضع نفسه.

QaradawiBooks.com

٢٠ ـ وإنَّ المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وإنَّه لا يجير مشرك مالًا لقريش ولا نفْسًا، ولا يحول دونه على مؤمن.

٢١ ـ وإنَّه من اعتَبَط[١] مؤمنًا قتلًا عن بيِّنة فإنَّه قَوَد[٢] به، إلَّا أن يرضى ولي المقتول (بالعقل)[٣]، وإنَّ المؤمنين عليه كافَّة، ولا يحلُّ لهم إلَّا قيام عليه.

٢٢ ـ وإنَّه لا يحلُّ لمؤمن أقرَّ بما في الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر: أن ينصر مُحْدِثًا أو يُؤويه، وإنَّ مَن نصره أو آواه فإنَّ عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرفٌ ولا عدل.

٢٣ ـ وإنَّه مهما اختلفتم فيه من شيء فإنَّ مردَّه إلى الله وإلى محمد ﷺ.

٢٤ ـ وإنَّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٢٥ ـ وإنَّ يهود بني عوف أُمَّة مع المؤمنين، لليهود دينُهم، وللمسلمين دينُهم، مواليهم[٤] وأنفسهم، إلَّا مَن ظلم نفسه وأَثِم فإنَّه لا يُوتِغ[٥] إلَّا نفسه وأهل بيته.

٢٦ ـ وإنَّ ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عَوْف.

٢٧ ـ وإنَّ ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

٢٨ ـ وإنَّ ليهود بني سَاعِدة مثل ما ليهود بني عوف.

---

(١) قتله دون جناية أو سبب يوجب قتله.

(٢) **القود**: القصاص.

(٣) **العقل**: الدية.

(٤) كانت بالمطبوع: ومواليهم.

(٥) لا يُهْلِك.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

٢٩ ـ وإنَّ ليهود بن جُشَم مثل ما ليهود بني عوف.

٣٠ ـ وإنَّ ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.

٣١ ـ وإنَّ ليهود بني ثَعْلَبَة مثل ما ليهود بني عوف، إلَّا مَن ظلم وأثِم، فإنَّه لا يُوتِغ إلَّا نَفْسه وأهلَ بيته.

٣٢ ـ وإنَّ جَفْنَة بطن من ثعلبة كأنفسهم.

٣٣ ـ وأنَّ لبني الشُّطَيْبة مثل ما ليهود بني عوف، وإنَّ البرَّ دون الإثم.

٣٤ ـ وأنَّ موالي ثعلبة كأنفسهم.

٣٥ ـ وأنَّ بِطَانة[1] يهود كأنفسهم.

٣٦ ـ وإنَّه لا يخرج منهم أحد إلَّا بإذن محمد ﷺ.

٣٧ ـ وإنَّ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإنَّ بينهم النصر على مَن حارب أهل هذه الصحيفة، وإنَّ بينهم النصح والنصيحة والبرَّ دون الإثم.

٣٨ ـ وإنَّه لا يأثم امرؤ بحليفه، وإنَّ النصر للمظلوم.

٣٩ ـ وإنَّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٤٠ ـ وإنَّ يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

٤١ ـ وإنَّ الجار كالنفس غير مضارٍّ ولا آثم.

٤٢ ـ وإنَّه لا تُجار حُرمة إلَّا بإذن أهلها.

(١) **بطانة الرجل**: خاصته وأهل سره.

QaradawiBooks.com

٤٣ ـ وإنَّه ما كان بين أهـل هذه الصحيفة من حَدَث أو اشـتجار[١] يُخاف فساده فإنَّ مردَّه إلى الله، وإلى محمد رسول الله ﷺ، وإنَّ الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبَرِّه.

٤٤ ـ وإنَّ بينهم النصر على مَن دهم يثرب.

أ ـ وإذا دعـوا إلى الصلح يصالحونه ويلبسـونه فإنَّهم يصالحونه أو يلبسـونه، وإنَّهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنَّ لهم على المؤمنين إلَّا مَن حارب في الدِّين.

ب ـ على كلِّ أناس حقُّهم من جانبهم الذي قِبَلهم.

٤٥ ـ وإنَّ يهود الأوس، مواليهم وأنفسـهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البرِّ المحض من أهل هـذه الصحيفة، وإنَّ البرَّ دون الإثم، لا يكسـب كاسـب إلَّا على نفسـه، وإنَّ الله على ما أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.

٤٦ ـ وإنَّه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، إنَّه مَن خرج آمن ومَن قعد آمن بالمدينة، إلَّا مَن ظلم وأثـم، وإنَّ الله جار لمَن برَّ واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ اهـ.

وقفات مع دستور المدينة:

ونحن نقف وقفـات خاصة مع وثيقة المدينـة لنجلِّي مدلول بعض المواد المهمة فيهـا، خصـوصًا تلك المتعلقة بمفهـوم الأمة وأثره على موضوع الوطن والمواطنة. فمـن الواضح أنَّ وثيقة المدينة تعطي مفهوم الأمة مدلولًا مركبًا من معان أربعة:

(١) اختلاف.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

المعاني الأساسية لتكوين الأمة في وثيقة المدينة:

١ ـ **المعنى الاعتقادي للأمة**، فالأمة بهذا المعنى تتأسس على أخوة الدين. ونجد هذا المعنى في عدة نصوص من هذه الوثيقة الدستورية، منها مثلًا النص على أنَّ «المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس» (المادة ١٥)، ثم تفصيل ذلك عمليًّا في المواد السبع التالية، وهي مواد تفصِّل التضامن بين المسلمين في السلم: «وإن سِلم المؤمنين واحدة، لا يُسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلَّا على سواء وعدل بينهم» (المادة ١٧)، والتعاضد بينهم في الحرب: «وإن كل غازية غزت يعقب بعضها على بعض. وإنَّ المؤمنين يُبِيء ـ يمنع ويكف ـ بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله» (المادتان ١٨ ـ ١٩) واشتراكهم في تحمل ضريبة الدم المترتبة على جهادهم ضد قريش (المادتان ٢٠، ٢٢) وتوحيد مرجعيتهم القانونية في حالة الخلاف حول هذه الأمور (المادتان ٢١، ٢٣).

٢ ـ **المعنى السياسي للأمة**، والأمة بهذا المعنى لا تقتصر على سكانها المسلمين، بل هي أمتان دينيتان في أمة سياسية واحدة. وأوضح المواد هنا تعبيرًا عن المدلول السياسي للأمة وتميزه عن المدلول الاعتقادي هي التي تنصُّ على أنَّ «يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم» (المادة ٢٥)، ثم مدَّ النص هذا الحكم ليشمل قبائل اليهود الأخرى و«بطانتهم» (أي أحلافهم من غيرهم) في إحدى عشرة مادة متتالية (المواد ٢٥ ـ ٣٥). فكلٌّ من المسلمين واليهود أمة دينية بمقتضى هذا النص، والأمَّتان تشكِّلان معًا أمة سياسية واحدة. ومن المهم الانتباه هنا إلى أنَّ النصَّ لم يقل: إنَّ

QaradawiBooks.com

اليهود أمة «من» المؤمنين. وإنَّما: هم أمة «مع» المؤمنين. والمعيَّة تقتضي المغايرة والاتصال معًا. وقد ترتَّب على هذه الوحدة السياسية مسؤوليات، أهمها أنَّ «اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين» (المادة ٢٤) وأنَّ «بينهم النصر على مَن دهم يثرب» (المادة ٤٤) وأنَّ «بينهم النصر على مَن حارب أهل هذه الصحيفة، وأنَّ بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم» (المادة ٣٧). فمسلمو المدينة بمقتضى الوثيقة يدفعون ضريبة المواطنة من دمائهم وأموالهم، واليهود يدفعونها من أموالهم فقط؛ لأنَّهم ليسوا جزءًا من الصراع الديني بين الحنيفية الإسلامية والوثنية القرشية. وهذا اعتراف حكيم بأنَّ اليهود جزء من الأمة السياسية لا الأمة الاعتقادية في دولة الإسلام، وتقنينٌ عادل لوضعهم طبقًا لذلك، كما أنَّه تأصيلٌ لقبول تعدد الهُويَّة الإنسانية، وتعدد أنماط الأخوة بين البشر.

٣ ـ **المعنى الجغرافي للأمة**، الجغرافيا هي أساس الهُويَّة السياسية والمواطَنة في العصر الحديث، ولم تغفلها وثيقة المدينة عنصرًا محدَّدًا من عناصر الانتماء للأمة بالمعنى السياسي. ففي مطلع الصحيفة نصَّ على أنَّ «المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب، ومَن تبعهم فَلَحق بهم وجاهد معهم... أمَّة واحدة من دون الناس» (المادتان ١، ٢). فأنت تلاحظ هنا أنَّ تمتع المسلم بالمزايا السياسية للانتساب إلى هذه الأمة الاعتقادية مشروط هنا بالانضمام الجغرافي إليها من خلال الهجرة، والمشاركة في الدفاع عنها من خلال الجهاد. وربط الولاء السياسي بالهجرة يؤيده القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ﴾ [الأنفال: ٧٢]. فكل مسلم جزء من

QaradawiBooks.com

الأمة الإسلامية الاعتقاديَّة، أما الدولة الإسلامية السياسية فالانتساب إليها يستلزم الانحياز الجغرافي إليها. ونصر هذه الدولة للمسلم المظلوم خارج حدودها ليس مقدَّمًا على مصالحها والتزاماتها الخاصَّة: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾.

٤ ـ **المعنى الاجتماعي للأمة**، والمراد به ما يكون من أواصر الأرحام والتعاضد الاجتماعي بين من يجمعهم نسب عرقي أو حلف سياسي تقليدي، مثل أبناء القبيلة الواحدة. وقد اعترفت وثيقة المدينة بهذه الروابط، ولم تجعلها نقيضًا للانتساب إلى الأمة الاعتقادية أو السياسية، بل جعلتها لبِنة من اللبنات التي يقوم عليها الصرح الاعتقادي والسياسي الكبير. فقد نصَّت الوثيقة على أنَّ المهاجرين يتعاقلون فيما بينهم (المادة ٣) ثم عدَّدت قبائل الأنصار وجعلت كلًّا منهم عاقلة مستقلة (المواد ٤ ـ ١١). ثم عمَّمت الوثيقة قاعدة التضامن الاجتماعي هذه لتشمل جميع المسلمين واليهود بالمدينة: «وأنَّ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم» (٣٧) بل لتشمل جميع سكان المدينة: «على كلِّ أناس حقُّهم من جانبهم الذي قبلهم» (المادة ٤٤).

ملاحظة هامة:

ونخلص من هذا التحليل لوثيقة المدينة إلى بضع ملاحظات مهمة لموضوع الوطن والمواطنة:

أولًا: ورد مفهوم الأمة في الوثيقة بمعانٍ متعدِّدة؛ اعتقاديّ، وسياسيّ، وجغرافيّ، واجتماعيّ، ولكل مدلول أهميته وتأثيره على مفهوم المواطنة وحقوقها. وقد أرست الوثيقة القبول للرابطة الاعتقادية الأوسع من الدولة، والرابطة القبلية الأضيق من الدولة.

QaradawiBooks.com

ثانيًا: قبلت الوثيقة تعـدُّد الانتماء أو الهُوية لـدى مواطنيها، فقد يكون المواطن مهاجرًا أو أنصاريًّا، مسلمًا أو يهوديًّا، أوْسيًّا أو خزرجيًّا، إلخ. وهو ليـس مطـالبًا بنفي هذا الانتماء من أجـل قبوله مواطنًا في الدولة الإسلامية.

ثالثًا: الدولة الإسـلامية التي وضعت وثيقة المدينة أساسـها ليست مرادفة لدولة المسلمين، وإنَّما تسـمَّى «دولة إسلامية» تغليبًا ومرجعيةً، وإلَّا فهي دولة المسلمين وغيرهم، محكومة بقانون الإسلام.

رابعًا: إذا كانت الجغرافيا هي الأسـاس الوحيد للمواطَنة في العصر الحديث، فإنَّ التحيُّز الجغرافي كان جزءًا مهمًّا من عناصر المواطنة في دولة المدينة. لكنَّ المواطنة فـي تلك الدولة النبويَّـة كانت تركيبًا من الجغرافيا والدين والمشـاركة الفعليـة في خدمة الدولـة والدفاع عنها (الهجرة والجهاد).

خامسًا: التناصر بين المسلمين أوسع من انتمائهم السياسي، وهو حقٌّ للجميع حتى لمن لا ينتمون لدولة إسـلامية أصلًا، كما هو حال المسـلمين الذين لم يهاجروا إلى المدينة قبل فتح مكة. فهؤلاء ليسوا مواطنين لكنَّهم إخوة في العقيدة[1].

اتفاقية الصلح مع نصارى نجران:

ومن وقائـع السـيرة النبويَّة التي يستشـهد بها على شـرعية فكرة «المواطنة» وما يسـتلزمها من الحقوق والمسـاواة: ما جـاء في اتفاقية الصلح التي عقدها النبي ﷺ، مع نصارى نجران.

(١) استفدنا من بحث حول وثيقة المدينة للأستاذ محمد المختار الشنقيطي.

QaradawiBooks.com

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما كتب محمد النبي رسول الله ﷺ لأهل نَجْران؛ إذ كان عليهم حكمه في كلِّ ثمرة، وفي كلِّ صفراء وبيضاء ورقيق، فأفضَل ذلك عليهم، وترك ذلك كلَّه لهم، على ألفيْ حُلَّة من حُلَلِ الأواقي: في كلِّ رجب ألف حُلَّة، وفي كلِّ صفر ألف حُلَّة، ومع كل حُلَّة أوقية من الفضة. فما زادت على الخراج، أو نقصت عن الأواقي فبالحساب، وما قضوا من دروع أو خيل أو رِكَاب أو عَرُوض أُخذ منهم بالحساب. وعلى نجران مؤنة رُسُلي، ومُتْعتهم، ما بين عشرين يومًا فما دون ذلك، ولا تحبس فوق شهر.

وعليهم عاريَّة ثلاثين درعًا وثلاثين فرسًا وثلاثين بعيرًا، إذا كان كيد باليمين ومَعَرَّة. وما هلك ممَّا أعاروا رُسُلي من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض، فهو ضمينٌ على رُسُلي حتى يؤدُّوه إليهم.

ولنجران وحاشيتها، جوار الله وذمَّة محمد النبي رسول الله ﷺ على: أموالهم، وأنفسهم، ومِلَّتهم، وغائبهم، وشاهدهم، وعشيرتهم، وبِيَعهم، وكلِّ ما تحت أيديهم من قليل أو كثير. لا يُغَيَّر أُسْقُفٌ من أُسْقُفِيَّته، ولا راهب من رهبانيَّته، ولا كاهن من كهانته. وليس عليهم ريبة، ولا دم جاهلية. ولا يُحشَرون، ولا يُعْشَرون، ولا يطأ أرضهم جيش. ومَن سأل منهم حقًّا، فبينهم النَّصَف غير ظالمين ولا مظلومين.

ومَن أكل ربا من ذي قبل، فذمَّتي منه بريئة. ولا يؤخذ رجل منهم بظُلْم آخر.

وعلى ما في هذا الكتاب جوار الله، وذمَّة محمد النبي رسول الله ﷺ، حتى يأتي الله بأمره، ما نصحوا وأصلحوا ما عليهم، غير مُثْقَلين بظلم.

QaradawiBooks.com

شهد: أبو سفيان بن حرب، وغيلان بن عمرو، ومالك بن عوف من بني النصر، والأقرع بن حابس الحنظلي، والمغيرة بن شعبة[١].

وكتب لهم هذا الكتاب عبد الله بن أبي بكر».

وقال يحيى بن آدم: وقد رأيتُ كتابًا في أيدي النجرانيِّين، كانت نسخته شبيهة بهذه النسخة، وفي أسفله: وكتب علي بن أبو «كذا» طالب، ولا أدري ماذا أقول فيه[٢] اهـ.

فهم في جوار الله، وذمَّة محمد ﷺ، والذي يتجسَّد في حماية أموالهم وأنفسهم وملَّتهم وعشيرتهم وبِيَعهم، وكلُّ ما تحت أيديهم من قليل أو كثير.

الوطن المحلي ودار الإسلام الكبرى:

كان المعنى القطري للوطن هو السائد لدى المسلمين في تاريخهم، وهي: الأرض التي وُلد فيها الإنسان أو نشأ، وله بها علاقة مادية وعاطفية، تمثِّل نوعًا من الانتماء والولاء.

ولم يكن هذا المعنى يتنافى أو يتعارض مع مفهوم آخر، وهو: أنَّ للمسلم انتماء أكبر وأعمق من الانتماء إلى الأرض أو إلى الوطن، وهو الانتماء للإسلام. فالانتماء إلى الوطن قدري وجبري لا اختيار للإنسان فيه، ولكنَّ الانتماء الآخر، هو باختيار الإنسان، وحرية الإنسان. إنَّه هو الذي يختار دينه، ويصرُّ عليه، ولا يرضى به بديلًا، ولو كان مُلك المشرق والمغرب.

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٣٨٨/٥، ٣٨٩)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.

(٢) فتوح البلدان صـ ٧٣، نشر دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٨م، وانظر: مجموعة الوثائق السياسية صـ ١٤٠ ـ ١٤٦.

QaradawiBooks.com

هذا الانتماء وهذا الولاء الآخر، هو لله ولرسوله وللأمة التي تشاركه هذه العقيدة. فبعد أن رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمَّدٍ رسولًا: أصبح الإسلام مصدر اعتزازه، ومحور ولائه، وأساس انتمائه، وغدت أمة الإسلام أهله وإخوانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، «**المسلم أخو المسلم**»(١)، «**المسلمون يسعى بذمَّتهم أدناهم، وهم يدٌ على مَن سواهم**»(٢).

وأمست «دار الإسلام» هي وطن كلِّ مسلم، وإن تباعدت داره، وقد عبَّر الإسلام عنها بهذا اللفظ «دار الإسلام»، وإن كانت هي في الحقيقة ديارًا وأوطانًا، ليشعر المسلم بوحدة الدار.

وأصبح ولاء المسلم لهذه الأمة الكبرى: أمرًا مُسلَّمًا، وهو يعتبر من مقتضيات الإيمان، وهو داخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۞ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦].

وولاء المسلم لأمته الكبرى يفرض عليه أن يذود عن حِماها، ولا يسمح لأحدٍ أن يعتدي عليها، أو يستولي على شيء من أرضها، أو ينتهك حرمة من حرماتها، أو يهين كرامة بعض أبنائها أو بناتها. وهو ما جعل الخليفة المعتصم يجيِّش الجيوش لغزو الروم، انتصارًا لامرأة مسلمة لُطمت على وجهها، فاستغاثت به عن بُعد قائلة: وامعتصماه! فقال لها: لبيكِ أختاه![٣].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٠)، عن ابن عمر.

(٢) رواه أحمد (٦٧٩٧)، وقال مخرِّجوه: صحيح. وأبو داود في الجهاد (٢٧٥١)، وابن الجارود في المنتقى (١٠٧٣)، وصححه الألباني في الإرواء (٢٢٠٨)، عن عبد الله بن عمرو.

(٣) راجع فتح عمورية في: البداية والنهاية لابن كثير (٢٥٢/١٤) وما بعدها، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، نشر دار هجر، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

QaradawiBooks.com

الانتماء بين الماضي والحاضر؟

لقد كان وطن المسلم هو «دار الإسلام» على اتِّساعها. فكلُّ أرض تجري فيها أحكام الإسلام، وتُقام شعائره، ويعلو سلطانه، ويرتفع فيها الأذان، هي وطن المسلم: يغار عليه، ويدافع عنه، كما يدافع عن مسقط رأسه. وكان العالم ينقسم عند المسلم على هذا الأساس العقائدي: فهو إما دار إسلام، وإما دار كفر.

وكان قوم المسلم هم المسلمين أو الأمة الإسلامية، الذين جمعته بهم أخوة الإيمان، وعقيدة الإسلام ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وكان أعداء المسلم هم أعداء الإسلام، ولو كانوا ألصقَ الناس به وأقربَهم إليه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فالمسلم حين يقف في صلاته مناجيًا ربَّه بهذا الدعاء: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، بصيغة الجمع هذه، يستحضر في حسِّه وذهنه أمة الإسلام جمعاء.

وحين يقرأ قول الله تبارك وتعالى في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ١٠٤]، يفهم أنَّ هذا الخطاب موجَّه للمسلمين جميعًا أينما كانوا.

وحين يقف الخطيب على المنبر يوم الجمعة، يدعو للمسلمين كافَّة، دون تفرقة بين إقليم وإقليم، ولا بين عنصر وعنصر، ولا بين لسان ولسان، بل يقول دائمًا: اللهمَّ اغفر للمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات. اللهمَّ أعزَّ المسلمين في كلِّ مكان.

QaradawiBooks.com

فإذا خصَّ بلده يـومًا بالدعاء له بالنصر والرخاء والسـعادة والعزة، تجده يقول: لبلدنا هذه خاصَّة، ولسائر بلاد المسلمين عامَّة.

فالتفكير الإسلامي، والحسُّ الإسلامي، لا يعرفان العصبية الإقليمية ولا العنصرية بحال من الأحوال.

صور رائعة في الفقه الإسلامي:

وفي الفقه الإسـلامي نجد هذه الصورة المعبِّرة عن وحدة الأمة المسـلمة، ووحدة الوطن الإسـلامي، وذلك فيما ينقله العلَّامة ابن عابدين عن أئمة الفقه الحنفي حيث يقرِّرون: أنَّ الجهاد فرض عين إن هجم العدو على بلد مسـلم، وذلك على مَن يقرب من العدو أولًا، فإن عجزوا أو تكاسلوا، فعلى مَن يليهم، ثم مَن يليهم، حتى يفترض ـ على هذا التدريج ـ على المسلمين شرقًا وغربًا[1]. وهذا متَّفق عليه بين الأئمة جميعًا.

والعجيب أن يقرِّر فقهاء الإسلام وجوب الدفاع عن البلد المسلم المعتدَى عليه، وإن تقاعس أهله أنفسـهم في الدفـاع عنه؛ لأنَّ هذا البلد ليس ملـك أهله وحدهـم، ولكنَّـه ـ باعتباره جـزءًا من دار الإسلام ـ ملك للمسـلمين جميعًا، وسـقوطه في يد الكفار: خسارة وهزيمة للمسلمين قاطبة.

وصورة أخرى يذكرها ابن عابدين: امرأة مسـلمة سُبيت بالمشرق، وجب على أهل المغرب تخليصها من الأسر[2].

(١) انظر: حاشية ابن عابدين (١٢٦/٤)، نشر دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

(٢) المصدر السابق.

QaradawiBooks.com

وقال الإمام مالك: يجب على المسلمين فداء أسراهم، وإن استغرق ذلك أموالهم![١].

وهكذا قرَّر القرآن وقرَّرت السُّـنَّة: أنَّ المسـلمين أمة واحدة «**يسعى بذِمَّتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم**»[٢]، «**ومَن لم يصبح ناصحًا** ـ أي مخلصًا بارًّا ـ **لله ورسوله ولأئمة المسلمين وعامَّتهم، فليس منهم**»[٣].

ولكنَّ غلوَّ «النزعـة الوطنية» الحديثة والمعاصرة، جعلت المسـلم يفكِّر في وطنه قبل عقيدته، وفي شعبه قبل أمَّته، ويعتبر المسلم من غير بلده أجنبيًّا.

وبـرزت نزعات جاهليـة تتنـادى بالقومية العنصريـة، والوطنية الإقليمية، لا بالأخوة الإسلامية التي جعلها الله صنو الإيمان حين قال: ﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾ [الحجـرات: ١٠]، بل أصبحت الأوطان والقوميات، وكأنَّها أوثان جديدة يعبدها الناس مع الله!

حتى رأينا شاعرًا كشوقي ـ رغم نزعته الإسلامية الأصيلة في شعره ـ يقول من قصيدة له يخاطب بها المصريين:

وَجهُ الكِنانَةِ لَيسَ يُغضِبُ رَبَّكُم أَن تَجعَلوهُ كَوَجهِهِ مَعبودَا[٤]!

(١) تفسير القرطبي (٢٤٢/٢)، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، نشر دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.

(٢) سبق تخريجه صـ ٤٠.

(٣) رواه الطبراني في الصغير (٩٠٧)، والأوسط (٧٤٧٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٩٤): فيه عبد الله بن أبي جعفر الرازي، ضعفه محمد بن حميـد، ووثقه أبو حاتم وأبو زرعة وابن حبان. عن حذيفة بن اليمان.

(٤) الشوقيات صـ ٢٢٩، تعليق د. يحيى الشامي، نشر دار الفكر العربي بيروت، ط ١، ١٩٩٦م.

QaradawiBooks.com

ويخاطب الوطن بعد عودته من منفاه فيقول:

أُديرُ إِلَيكَ قَبلَ البَيتِ وَجهي إِذا فُهتُ الشَــهادَةَ وَالمَتابا[١]

ورأينا الأتراك ينادون بقومية طورانية، والعرب ـ في بلاد الشام ـ ينادون بقومية عربيــة، وانتهى الأمر باقتتال العنصرين الإســلاميين ـ العربي والتركي ـ بحدِّ الســلاح، مع قول الرسول ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كُفَّارًا يضرب بعضُكم رقاب بعض**»[٢]، «**سبابُ المسلمِ فسوق، وقتاله كُفْر**»[٣]، «**إذا التقى المسلمان بسَيْفَيهما، فالقاتل والمقتول في النار**»[٤].

والعجب أن يتَّخذ أحد العنصرين بعض الكفار أولياء وحلفاء له ضدَّ إخوانه المسلمين، مع قول الله المحكَم: ﴿**وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ**﴾ [المائدة: ٥١].

كان الاستعمار الصليبي ـ ممثَّلًا في مؤسساته التبشيرية والاستشراقية ونحوهــا ـ وكانــت اليهودية العالميــة ـ ممثَّلــة في منظماتها الســرية كالماســونية وغيرها ـ مــن وراء بذر بذور هــذه الفتنة: فتنــة الوطنية والقومية، لتحطيم الوحدة الإسلامية التي تمثِّلها الخلافة العثمانية، على ما بها من عِلل وعيوب، ولتمزيق العالم الإســلامي إلى أجزاء يســهل ابتلاعها، وفرض الوصاية عليها، كما يصعُب قيام دولة إســلامية كبرى تضمُّ المسلمين تحت راية الإسلام.

---

(١) الشوقيات صـ ١٠٧.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٢١)، ومسلم في الإيمان (٦٥)، عن جرير بن عبد الله.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤)، كلاهما في الإيمان، عن ابن مسعود.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٧٠٨٣)، ومسلم (٢٨٨٨)، كلاهما في الفتن، عن أبي بكرة.

QaradawiBooks.com

وكاد اليهود كيدهم، وسعوا سعيهم حتى سقطت القلعة الإسلامية ـ الخلافة ـ وكانت كارثة زلزلت مشاعر المسلمين، واضطرب لها قاصيهم ودانيهم، وثار المسلمون هنا وهناك، وعقدوا المؤتمرات، للعمل على عودة الخلافة، ولكنَّها باءت جميعًا بالفشل، وتمزَّقت أرض الإسلام إلى اليوم، وقرَّت عين الاستعمار والصهيونية، بهدم تلك الدولة الكبرى، وقيام الدويلات المتفرِّقة هنا وهناك.

يقول برنارد لويس:

«والتغريب الذي كان أكثره من عمل «المتغرِّبين» من أبناء الشرق، جاء بتغييرات يُشَكُّ كثيرًا في قيمتها. أول هذه التغييرات هو الانحلال السياسي الذي أدَّى إلى تفتيت المنطقة وتجزئتها. فقبل ذلك التاريخ كان في الشرق الأوسط نظام سياسي مستقر، فالشاه يحكم إيران، والسلطان هو عاهل المملكة العثمانية التي تشمل كلَّ ما بقي من الشرق الأوسط، وقد لا يكون كلُّ السلاطين الذين تعاقبوا على الحكم محبوبين من رعاياهم، ولكنَّهم كانوا في موضع احترام، والأهم من ذلك أنَّه لم يكن هناك خلاف على مشروعية الحكم، فالسلطان هو الحاكم بلا منازع، لأنَّه عاهل لآخر خلافة إسلامية تضمُّ جميع مسلمي العالم تقريبًا... ثم عُزل السلطان... وهُدمت الخلافة، وقام مقامه عدد من الملوك والرؤساء الديكتاتوريين الذين دبَّروا لمدَّة معيَّنة أمرهم، وربحوا تصفيق وتأييد شعوبهم... ولكنَّهم لم يكونوا أبدًا موضع الرضا التام، والقبول الطبيعي، والولاء الأكيد، الذي كان ممنوحًا لحكومة السلطان الشرعية، وهذا الولاء والقبول والرضا جعل

QaradawiBooks.com

السـلطان غير محتاج للضغط والعنف والإرهـاب أو للديماغوجية السياسية[١] في الحكم»[٢] انتهى.

غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ينتمون إلى دار الإسلام:

فكرة الانتماء إلى الإسلام، وإلى أمة الإسـلام، وإلى دار الإسلام، التي كانت سائدة في القرون الماضية منذ عصر النبوة، فعصر الراشدين، فعصور الأمويين والعباسـيين والعثمانيين: قد لا تكون مقبولة عند غير المسـلمين. على أسـاس أن أصل هذا الانتماء ديني، ينطلق من القرآن والسُّنَّة.

هذا مع أنَّ فقهاء المذاهب المختلفة جميعًا، قرَّروا: أنَّ غير المسلمين في المجتمع الإسـلامي، وهم الذين يعبَّر عنهم في الاصطلاح الفقهي بـ «أهل الذِّمَّة» يعدُّون من «أهل دار الإسلام». فهم من «أهل الدار» وإن لم يكونوا من «أهل الملَّة».

وفي اجتهـادي: أنَّ كلمة «أهل الـدار» هذه تمثِّل مفتاحًا للمشـكلة، مشكلة المواطنة، لأنَّ معنى أنَّهم «أهل الدار» أنَّهم ليسوا غرباء ولا أجانب، لأنَّ حقيقة معناها: أنَّهم أهل الوطن، وهل الوطن إلَّا الدار أو الديار؟

وإذا ثبت أنهم أهل الوطن، فهم «مواطنون» كغيرهم من شركائهم من المسلمين.

---

(١) مجموعة الحيل السياسية التي يلجأ إليها السياسيون لإغراء الشعب بوعود كاذبة ظاهرًا من أجل مصلحة الشعب، وباطنًا من أجل الوصول إلى الحكم.

(٢) انظر: الغرب والشرق الأوسـط صـ ٦١، ٦٢، ترجمة د. نبيل صبحي، لاجوس، ط ١، ١٩٦٣م، وانظر كتابنا: الحلول المسـتوردة وكيف جنت على أمتنا صـ ٥٣ ـ ٥٧ ببعض تصرف، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٦، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٦م.

QaradawiBooks.com

وبهذا تحلُّ هذه الإشكالية من داخل الفقه الإسلامي، دون الحاجة إلى استيراد مفهوم المواطنة من سوق الفكر الغربي.

فإنَّ هذا المفهوم المستورد قد يحلُّ مشكلة الأقليَّات الدينية من مسيحية ويهودية ومجوسية ونحوها، ولكنَّه ينشئ مشكلة عند المسلم، إذ يفرض عليه الانفصال عن انتمائه الديني، وولائه الديني. وهو أمر يدخل في الفرائض، بل ربما في العقائد.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٤٤]، ﴿ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [التوبة: ٢٣]، ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ ﴾ [المائدة: ٥١].

والظنُّ بأنَّ الدين لم يعد أساسًا في حياة الناس، بعد أن غزته الأفكار العلمانية والليبرالية والماركسية: ظنٌّ غير صحيح، إلَّا في القليل من النُّخب. فما زال سلطان الدين قائمًا لدى الجمهور الأعظم من الناس.

فكيف نحلُّ مشكلة الأقلية، ونخلق في الوقت نفسه مشكلة عند الأكثرية؟

وما يُضير غير المسلم أن يكون مواطنًا في «دار الإسلام» سواء كانت دار الإسلام الكبرى، التي تشمل كلَّ ديار الإسلام حين تضمُّهم قيادة (خلافة) واحدة، أو «دار الإسلام» المحدودة بحدود إقليم أو قُطر معيَّن.

ربما يكون الإشكال هنا، هو التخوُّف من عدم تطبيق مبدأ المساواة على الجميع، وتمييز المسلم على غير المسلم في مجالات معيَّنة، في حين أنَّ المواطنة تفترض المساواة بين جميع المواطنين.

QaradawiBooks.com

وهذا التخوُّف وارد، وله ما يبـــرره، ولهذا يلزمنا فقهًا: أن نقرِّر فكرة المســـاواة بين أبناء دار الإسلام على أســـاس مبدأ: لهم ما لنا، وعليهم ما علينا. ولا تمييز إلَّا فيما تقتضيه طبيعة الخلاف الديني.

ولا بدَّ من حـــذف كلمـــات ومصطلحات تاريخيـــة من قاموس التعامل المعاصر، مثل كلمة «ذمَّة» و«أهل ذمَّـــة» التي لم يعُد يقبلها غير المسلمين. فلم يتعبَّدنا الله بهذه الكلمات، وقد حذف عمر ما هو أهم منها، حين اقتضت المصلحـــة العليا ذلك، فحذف كلمة «جزية» حين طلـــب منه ذلك نصارى بنـــي تغلب، وقالوا: إنَّنـــا قـــوم عرب، ونأنف من كلمـــة «جزيـــة»، ونريد أن تأخـــذ ما تأخـذ منَّا باســـم «الصدقة»، ورضي منهم ذلك، معتبرًا أنَّ العبرة بالمسمَّيات والمضامين، لا بالأسماء والعناوين[1].

الأخوة الوطنية:

بل أقول: إنَّ الاشـــتراك في الوطن يفرض نوعًـــا من الترابط بين المواطنين بعضهم وبعض، يمكن أن نســـمِّيه «الأخوة الوطنية» فكلُّ مواطـــن أخ لمواطنه، وهـــذه الأخوة توجب له من حقـــوق المعاونة والمناصرة والتكافـل ما يســـتلزمـه معنى «الأخوة» أي الانتمـاء إلى أسرة واحدة.

وقد يعترض بعض الإســـلاميين مـــن الحرفيين والمتشـــدِّدين على إطلاق الأخوة خارج الإطار الديني. فليس عندهم أخوة إلَّا أخوة الإيمان، أي الأخوة الدينيّة، ولا اعتراف بأيِّ أخوة سواها.

(١) رواه عبد الرزاق في أهل الكتاب (١٠١٢٥)، والبيهقي في السير (٩/٢١٦).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ودليلهم على ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقوله عن المؤمنين: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقول الرسول ﷺ: «**المسلم أخو المسلم**»[1].

ونحن نؤمن بأصالة الأخوة الدينيــة القائمة على الإيمان، ونرى أنَّها أعمق أنواع الأخوَّات. كما عرَفنا ذلك في ســيرة الصحابة والمســلمين الأُوَل، وكيف فاقت هذه الأخوة أخوة النسب والدم في وقائع شتَّى.

ونرى هذه الأخوة تذيب كلَّ الفوارق بين الناس، من عنصرية ولونية وإقليمية ولغوية وطبقية، وتُعلي عنصر الدين على كلِّ هذه الأشياء، فترى المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجســد الواحد، يألم سائر الجســد إذا اشــتكى عضو منه[2]. وترى المؤمن الأبيض في أوربا يشعر بأخوة عميقة بينه وبين المؤمن الأسود في إفريقيا، فقد ربط بينهما الإيمان الواحد.

ومع اعترافنا بذلك نؤكِّد: أنَّ هــذه الأخوة على عمقها، لا تمنع من وجود أنــواع أُخَر من الأخوَّات. مثل الأخوة الوطنيــة أو القومية، ومثل الأخوة الإنسانية.

وقد ناقشــني أحد المتشــدِّدين يومًا، معترضًا على قولي: «إخواننا الأقباط». بأنَّ الأخوة إنَّما تكون بين المسلمين بعضهم وبعض، والأقباط نصارى، فكيف يكونون إخواننا؟

---

(١) سبق تخريجه صـ ٤٠.

(٢) كما جاء في حديث النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «**ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم، كمثل الجسد، إذا اشتكى عضوًا تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى**». متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠١١)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٦).

QaradawiBooks.com

قلتُ له: إنَّ الأقباط إخواننا في الوطـــن، وإن لم يكونوا إخواننا في الدين، يجمعنا وإيَّاهم وطن واحد.

قال: وهل هناك أخوة غير أخوة الدين؟

قلتُ: نعم، هناك الأخوة الوطنية، والأخوة القومية، والأخوة المهنية، والأخوة الإنسانية... إلخ.

قال: وما الدليل الشرعي على ذلك؟

قلتُ: الدليل على هذه الأخوَّات: وجودها في عالم الناس وواقعهم. وإن كان ولا بد من دليل من نصوص الشرع، فها أنا ذا أسوقه إليك من القرآن الكريم.

اقرأ معي قول الله تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٠٥، ١٠٦].

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ...﴾ [الشعراء: ١٢٣، ١٢٤].

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٤١، ١٤٢].

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٠، ١٦١].

فكلُّ هؤلاء الأقوام كذَّبوا رســلهم وكفروا بهم، ومع هذا عبَّر القرآن عن علاقة رســولهم بهم بأنَّها علاقة «الأخوة»: ﴿قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾؛ وذلك لأنَّ هؤلاء الرســل كانوا منهم، ولم يكونوا أجانب عنهم، فتربطهم أخوَّة قومية. ولهذا كان كل رسول يبدأ قومه بقوله: يا قوم اعبدوا الله.

وفي هذه السورة نفسها عرضت قصة شعيب مع أصحاب الأيكة فقال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٧٦، ١٧٧].

QaradawiBooks.com

ولم يقُل كما قال في الرسل السابقين: إذ قال لهم أخوهم شعيب، لماذا؟ لأنَّ شعيبًا لم يكن من أصحاب الأيكة، بل كان غريبًا عنهم، وإنَّما كان من مَديَن، وهم قومه، ولهذا قال في سورة الأعراف وفي سورة هود وفي سورة العنكبوت: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥، هود: ٨٤، العنكبوت: ٣٦].

فهذا يدلُّنا على أنَّ الأخوة ليست دائمًا دينيَّة، بل قد تكون وطنية أو قومية، أو غيرها.

وهنا لم يجد المعترض بُدًّا من التَّسليم، وهل يعارض مسلم دلالة القرآن الكريم؟

وإذا ثبتت الأخوة، فقد ثبت ما تقتضيه وتستلزمه من المحبَّة والمساواة والتضامن، إذ لا معنى للأخوة بغير هذا.

متى تحدث الإشكالية في قضية الوطنية والمواطنة:

ما ذكرناه إذن حول قضية الوطن والوطنية والمواطنة: مُسلَّم به في الجملة على الأقل، ولا ينبغي أن يختلف فيه إسلامي وغير إسلامي.

فمتى تحدث الإشكالية بين الطرفين، بحيث يبدوان وكأنَّهما خصمان؟ ولماذا تحدث هذه الإشكالية؟

إنَّها تحدث لعدَّة أسباب يمكن التغلُّب عليها كلِّها بيسر، إذا صفت النيَّات، وصحَّت العزائم.

١ ـ عند تعارض الولاءات والانتماءات:

فالإنسان في واقع الأمر ليس له انتماء واحد، فقد تتعدَّد انتماءات الإنسان باعتبارات شتَّى، ولا نجد أيَّ تناقض بينها.

QaradawiBooks.com

فالإنسان ينتمي إلى أسرته، وينتمي إلى قريته، وينتمي إلى محافظته، وينتمي إلى قُطره أو وطنه، وينتمي إلى إقليمه، وينتمي إلى قارَّته، وينتمي إلى دينه، وينتمي إلى أمَّته (الكبرى المؤسَّسة على الدين)، وينتمي إلى الأسرة الإنسانية.

ولا حرج في ذلك ولا ضير، فهذه الانتماءات غير متعارضة ولا متناقضة، بل هي تعبِّر عن حقائق قائمة بالفعل، والعلاقة فيما بينها علاقة الخاص بالعام، والأخصِّ بالأعمِّ، وما بينهما.

إنَّما تحدث الإشكالية حين يتعارض الانتماء إلى الوطن والولاء له، مع انتماءات وولاءات أخرى يلتزم بها الإنسان.

وذلك مثل الانتماء إلى الدين والولاء له.

ومثل الانتماء إلى القوم والولاء لهم.

ومثل الانتماء إلى البشرية والولاء لها.

فأيُّ هذه الولاءات والانتماءات أولى بالتقديم على غيرها؟ أعني: إذا تعارض الولاء للوطن والولاء للدين، فأيُّهما يقدم، وبأيِّهما نضحِّي؟

الذي يظهر في هذه الحالة: أنَّه في حالة التعارض بين الدين والوطن، فإنَّ الدين هو المقدَّم، لأنَّ الوطن له بديل، والدين لا بديل له.

ولهذا رأينا الرسول الكريم وأصحابه حين تعارض الدين والوطن: هاجروا في سبيل الله وضحَّوا بالوطن الذي ضاق بعقيدتهم، وصادر دعوتهم، وفتنهم في دينهم. كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠].

QaradawiBooks.com

وقال سبحانه: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحشر: ٨].

وقال ﷻ: ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۝ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ [الحج: ٥٨، ٥٩].

وقد بيَّن القرآن الكريم في مفاصلة واضحة وحاسمة: أنَّ دين المسلم أعزُّ عليه، وأحبُّ إليه من كلِّ شيء سواه، ممَّا يعتزُّ به الناس ويحرصون عليه، وذلك في قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

وبهذا يتبيَّن بما لا شك فيه: أنَّ دين المسلم المعبَّر عنه في الآية بحبِّ الله ورسوله: يجب أن ترجح كفَّته على كلِّ الروابط والقِيَم الأخرى، بما في ذلك الآباء والأبناء، والإخوة، والأزواج، والعشيرة، والأموال، والتجارة، والمساكن التي يرضونها. وهذه العبارة تعبِّر عن الأوطان التي رضوها وارتبطوا بها ماديًّا وعاطفيًّا.

٢ ـ اقتران الوطنية بالعلمانية:

وتحدث المشكلة لدى بعض الإسلاميين، فتراهم يعارضون أو يتحفَّظون على فكرة «الوطنية» انطلاقًا من أن «الوطنية» مسكونة بـ «العِلْمانية» التي تفصل الدين عن الدولة، بل عن الحياة. على

QaradawiBooks.com

خلاف ما هو معروف عن شمولية الإسلام، الذي عرَفه الناس من مصادره الأصيلة: عقيدة وشريعة، عبادة ومعاملة، دعوة ودولة، دينًا ودنيا. وعرَفوا: أنَّ الدين هو إحدى الضروريات أو الكليَّات الخمس التي جاءت بها الشريعة، التي شرعها الله لتحقيق مصالح العباد في المعاش والمعاد.

ونقول هنا: إنَّ الوطنية في ذاتها لا تحمل أيَّ مضمون أيديولوجي، لا مضمون ديني ولا لاديني (علماني)، بل هي محايدة، وقابلة لأن تحمل ما تُحَمَّل، من حقٍّ أو باطل.

وليست كلُّ النزعات الوطنية التي رأيناها علمانية، بل رأينا نزعات وطنية مُشبعة بالروح الإسلامية، مثل «وطنية مصطفى كامل» الذي كان متعاطفًا مع دولة الخلافة الإسلامية، ومثل حركات التحرُّر الوطني في كثير من الأقطار الإسلامية، فقد كانت هذه الحركات التي قامت لمحاربة الاستعمار، وطرده من بلادها، والحصول على السيادة والحرية: ذات جذور إسلامية، وحوافز إسلامية، كما في الجزائر وبلاد الشمال الإفريقي العربي، وكثير من البلاد في آسيا وإفريقيا، وهو ما اعترف به المؤرخ الأمريكي المعروف «برنارد لويس» في كتابه «الغرب والشرق الأوسط» بأنَّ حركات التحرير في البلاد الإسلامية المختلفة، كان يقودها ويوجِّهها الزعماء الدينيون في شتَّى البلدان.

ومثل ذلك النزعات القومية، فليست القومية في ذاتها علمانية، ولكنَّ دعاة القومية في بعض الأوقات كانوا علمانيين، ليبراليين أو ماركسيين، فظنَّ مَن ظنَّ: أنَّ القومية لا بد أن تكون علمانية.

وليس من الضروري أبدًا أن تكون الوطنية أو القومية علمانية.

QaradawiBooks.com

٣ ـ الغلو في الوطنية حتى تصبح بديلًا عن الدين:

وتحدث المشكلة أيضًا حين يغلو بعض الوطنيين في فكرة الوطنية، أو عاطفة الوطنية، حيث نرى بعضهم يجعلون الوطن مقابل «الدين» أو بديلًا عن الدين، وإن شئتَ قلتَ: مقابل «الله» أو بديلًا عن «الله»، فكما تبدأ الأمور «باسم الله» تبدأ باسم الوطن، وكما يُقسم الناس بالله، يُقسمون بالوطن، وكما يعمل الناس لوجه الله، يعملون لوجه الوطن!

وكأنَّ الوطن أصبح إلٰهًا، أو وثنًا يشركونه مع الله ﷻ. مع أنَّ المسلم قد جعل محياه ومماته كما جعل صلاته ونسكه لله، كما قال تعالى لرسوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

والحسُّ الديني عند المسلم يرفض أن يقرن باسم الله اسمًا آخر، أو يُقسم بأحد أو بشيء مع الله، أو يعمل عملًا لوجه غير وجه الله، ناهيك أن يفرده.

ولقد رأينا النزعة الوطنيَّة، حين تمزَّقت مظلَّة الخلافة الإسلامية، وانفرط عِقد الأمة الواحدة، والدولة الواحدة، لتصبح أُممًا أو أُميمات، أو دُولًا أو دُويلات! تحاول كلُّ دولة أن تعزِّز وجودها «الوطني» الجديد، بفلسفة جديدة، ومفاهيم جديدة، يراد بها أن تبدِّل الولاء لله ولرسوله وللأمة المسلمة الكبرى، لتجعل بدله الولاء للوطن الصغير، الذي يُنْبئ عنه عَلَم خاص، واسم خاص، وحدود خاصَّة، وتُنشد له الأشعار، وتُنشأ له الأناشيد، لتتعلَّق القلوب به، وتتَّجه المشاعر إليه.

QaradawiBooks.com

وأذكر أنَّنا حين كنَّا تلاميذ بالمدارس الأوليَّة، كانوا يحفِّظوننا نشيدًا وطنيًّا حماسيًّا، لا أدري مَن أنشأه، وهو يقول:

بلادي، بلادي، فـداكِ دمي وهبْتُ حياتي فدًا، فاسـلمي
غرامُـك أوَّلُ ما فـي الفؤادِ ونجواكِ آخـرُ ما فـي فَمِي

وقد سمعتُ شـيخنا الشـيخ محمد الغزالي يعلِّق على هذا النشيد، وهذا البيت منه فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ: فماذا بقي من فؤاد هذا القائل ومن فمه لله خالقه؟

«الوطنية» مشـروعة ومطلوبة إذا لم تتَّجه هذا الاتجـاه الغالي، فإنَّ الغلوَّ في كلِّ شيء يفسـده، وقد رأينا الإسـلام يحذِّر أشدَّ التحذير من الغلو في الدين. وكذلك الغلو في الوطن والوطنية.

وممَّا يذكر هنا أنَّ أمير الشـعراء أحمد شوقي برغم نزعته الإسلامية الواضحة، وبرغم قصيدته في نعي الخلافة الإسلامية حين أُلغيت، وهي من روائع الشعر، الذي أُوصي الشـباب بحفظه[1]، أراه أحيانًا يبالغ في الوطنية، مثل قوله:

وطني لو شغلتُ بالخُلْدِ عنه نازعتني إليه بالخُلْدِ نَفْسِي[2]!

---

(١) ومطلعها:

عادت أغاني العُرْسِ رجْعَ نُوَاحِ ونُعِيـتِ بيـنَ مَعَالِـمِ الأفراحِ
كُفِّنْـتِ في يـومِ الزفـافِ بثوبه ودُفِنْـتِ عنـد تبلُّـج الإصباح

انظر: الشوقيات صـ ١٧٠.

(٢) انظر: الشوقيات صـ ٣٣٧.

QaradawiBooks.com

وأشد منه قوله يخاطب أبناء مصر:

وَجهُ الكِنانَةِ لَيسَ يُغضِبُ رَبَّكُم أَن تَجعَلوهُ كَوَجهِهِ مَعبودَا
وَلُّوا إِلَيهِ في النهار وُجوهَكُم وَإِذا فَرَغتُمُ فَاعبُدوهُ هُجودَا[1]!

بل رأينا بعض الغلاة من العرب يقدِّم الوطن على الدين بصراحة، ويجعل كلمة الوطن هي العليا، وليست كلمة الله، ولا يبالي بما يؤمن به الناس من العقائد الدينية، ولا ما يحسُّون به من المشاعر الدينية. يقول

بلادكَ قدِّمها على كلِّ ملَّةٍ ومن أجلها أَفْطِرْ، ومن أَجْلِها صُمِ!
هَبُوني دينًا يمنح العُرْبَ وَحْدَةً وسيروا بجُثماني على دين برْهَمِ!
سلامٌ على كفر يوحِّد بيننَا وأهلًا وسهلًا بعده بجهنمِ[2]!

٤ ـ عندما تتحوَّل الوطنية إلى عصبية جاهلية:

وتحدث المشكلة كذلك عندما تتحوَّل النزعة الوطنية إلى عصبية جاهلية، يتجمَّع فيها أهل الوطن ضدَّ غيرهم، وينحازون فيها بعضهم لبعض، ينصر أخاه في الوطن ظالمًا أو مظلومًا، ويستجيب له إذا دعاه في الحقِّ أو الباطل. على نحو ما قيل في وصف أحد زعماء قبائل العرب: إذا غضب، غضب له مئة ألف سيف، لا يسألونه فيم غضب؟!

وكما وصف أحد الشعراء أبناء قبيلته بقوله:

لا يسألون أخاهم حين يندُبُهم في النائباتِ على ما قال بُرهانَا[3]

(١) انظر: الشوقيات صـ ٣٣٧.

(٢) الأبيات للشاعر القروي رشيد سليم الخوري، كما في ديوانه الأعاصير صـ ١١١، مطابع مجلة الشرق.

(٣) البيت لرجل من بلعنبر بن تميم يقال له: قريط بن أنيف. كما في حماسة أبي تمام (٥٧/١)، تحقيق عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

QaradawiBooks.com

فالعصبية: أن تعين أهلك وقومك على ظلم الآخرين، وأن تشهد لهم على الآخرين محقِّين كانوا أم مبطلين، وأن تقول ما قال أتباع المتنبئين الكذبة من قبائل العرب أيام حروب الردَّة: كـذاب ربيعة أحبُّ إلينا من صادق مُضَر[١].

هكذا تكون العصبية القومية، وكذلك تكـون العصبية الوطنية، كما رأينا ذلك في النزعـات النازية والفاشـية في أوربا في أواسـط القرن العشرين، من رفع شعارات: ألمانيا فوق الجميع، وإيطاليا فوق الجميع.

والإسلام يعلِّم المسلم: أن يدور مع الحقِّ حيث دار، وأن يقول الحقَّ وإن كان مرًّا، وأن يكون قوَّامًا بالقسـط شـهيدًا لله، ولو على نفسـه أو الوالدين والأقربين، وكذلك لا يجرمه شـنآن قوم علـى ألا يعدل، بل يجب أن يقوم بالقسـط مع مَن يحبُّ، ومع مَن يكره. فعدل الله لجميع عباد الله.

ومن هنا أنكر الإسـلام العصبية بكلِّ أنواعها، سـواء كانت عصبية قبلية، أم عصبية قومية، أم عصبية إقليمية، أم أي عصبية كانت.

روى الإمام مسـلم في صحيحه، عن أبي هريرة، عـن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَن قاتل تحت راية عُمِّيَّة، يغضب لعَصَبَة، أو يدعو إلى عَصَبَة، أو ينصر عَصَبَة، فقُتِل، فقِتْلَةٌ جاهلية**»[٢].

* * *

(١) انظر: تاريخ الطبري (٢٨٦/٣)، نشر دار التراث، بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ.

(٢) رواه مسلم في الإمارة (١٨٤٨)، وأحمد (٧٩٤٤)، عن أبي هريرة. وعمِّيَّة بضم العين وكسرها: الأمر لا يستبين وجهه.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

رجال الإصلاح وموقفهم من المواطنة

كلُّ مَن درس تراث رجال الإصلاح الإسلامي، الذين قاموا بالدعوة للنهوض بالأمة، وتحريرها من نِيْر الاستعمار الغربي، وإخراجها من دائرة التخلُّف إلى دائرة التقدُّم والارتقاء، ابتداءً من جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وعبد الرحمٰن الكواكبي، وغيرهم، يجدهم جميعًا يؤمنون بأنَّ لأوطانهم حقًّا عليهم، يوجب عليهم أن يبدؤوا بإصلاحها، أولًا: من باب الأقربون أولى بالمعروف، كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ٢١٥]، فبدأ بالوالدين والأقربين لما لهم من حقٍّ أوكد.

وقد كان الشيخ محمد عبده مع ثورة عرابي الوطنية المصرية، التي قامت ضدَّ الخديوي، وبعد ذلك كانت عنايته بالمجتمع المصري أكثر من غيره، عن طريق إصلاح التعليم العام، وخصوصًا إصلاح الأزهر، وقال كلمته الشهيرة: يستحيل بقاء الأزهر على حاله، فإمَّا أن يعمَّر، وإمَّا أن يتمَّ خرابه!

وسمَّاه الأستاذ عباس العقاد في كتابه عنه «رائد الفكر المصري الحديث».

نسخة تجريبية

ولكنهم جميعًا يؤمنون بوطنهم الأكبر: دار الإسلام، ولهذا عملوا على تحريرها من كلِّ سلطان أجنبي، وتوحيدها، والسعي في عودتها إلى الرقيّ والتضامن والقيادة من جديد.

هكذا رأينا الأفغاني ومحمد عبده في مجلة «العروة الوثقى» التي كانت تصدر من باريس، والتي كانت تتكلَّم باسم العالم الإسلامي كلِّه، وتوجِّه دعاة الحرية والإصلاح في كلِّ بلاد الإسلام.

وهكذا رأينا الكواكبي في كتابه «أم القرى» الذي تصوَّر فيه مؤتمرًا إسلاميًّا عالميًّا يعقد في «مكة المكرمة أم القرى» ليبحث مشكلات الأمة الإسلامية جمعاء، ويقترح الحلول لها.

ومن بعد هؤلاء المصلحين والمجدِّدين، ظهر مصلحون آخرون في أقطار شتَّى، اتَّفقت مقاصدهم، واختلفت طرائقهم، وسنقصر حديثنا هنا على اثنين من كبار المصلحين الإسلاميين: أحدهما من بلاد العرب، وهو حسن البنَّا. والآخر من القارَّة الهندية، وهو أبو الأعلى المودودي. وكلُّ واحدٍ منهما له نظرة تخالف نظرة الآخر، وإن كان هدفهما الأساسي واحدًا.

١ ـ حسن البنَّا وموقفه من الوطنية والمواطنة:

ولقد تحدَّث الإمام حسن البنا عن مفهوم الوطنية في رسالة «دعوتنا» من رسائله الشهيرة، وبيَّن المعاني والمقاصد التي يمكن أن تفهم من هذه الكلمة، وأنَّ منها ما هو مقبول في منطق الإسلام وشريعته، ومنها ما هو مردود ومرفوض. وذلك بسبب ظهور وانتشار هذه المصطلحات الجديدة في المجتمعات الإسلامية، وولع بعض الناس بها، وفَهم كلِّ فريق لها بحسب هواه، أو هوى مَن يسير خلف فلسفتهم.

QaradawiBooks.com

الوطنية المقبولة والوطنية المردودة:

وفي رسالة «دعوتنا» يفصِّل الإمام البنَّا القول في الوطنية تفصيلًا، فقد كان الرجل حريصًا على تحديد المفاهيم الغامضة، أو المحتملة لاختلاف الأفهام، وعلى تفصيل المعاني والمصطلحات المجملة، وضبط الكلمات الهُلامية التي يفسِّرها كلُّ فريق بما يمليه عليه هواه، أو تبعيته لفكرة معيَّنة.

بيَّن في هذه الرسالة الموقف من الدعوات المختلفة التي طغت في هذا العصر، ففرَّقت القلوب، وبلبلت الأفكار. ومنها: الوطنية.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «افتتن الناس بدعوة الوطنية تارة، والقومية تارة أخرى، وبخاصة في الشرق، حيث تشعر الشعوب الشرقية بإساءة الغرب إليها، إساءة نالت من عزَّتها وكرامتها واستقلالها، وأخذت من مالها ومن دمها، وحيث تتألَّم هذه الشعوب من هذا النِّير الغربي الذي فُرِضَ عليها فرضًا، فهي تحاول الخلاص منه بكلِّ ما في وسعها من قوَّة ومَنَعَة وجهاد وجِلاد، فانطلقت ألسن الزعماء، وسالت أنهار الصحف، وكتب الكاتبون، وخطب الخطباء، وهتف الهاتفون باسم الوطنية وجلال القومية.

حسن ذلك وجميل، ولكنَّ غير الحسن وغير الجميل: أنَّك حين تحاول إفهام الشعوب الشرقية ـ وهي مسلمة ـ أنَّ ذلك في الإسلام بأوفى وأزكى وأسمى وأنبل ممَّا هو في أفواه الغربيين، وكتابات الأوربيِّين: أَبَوا ذلك عليك، ولجُّوا في تقليدهم يعمهون، وزعموا لك أنَّ الإسلام في ناحية، وهذه الفكرة في ناحية أخرى، وظنَّ بعضهم أنَّ ذلك ممَّا يفرِّق وحدة الأمة، ويُضعف رابطة الشباب»[1].

(١) رسالة دعوتنا صـ ١٣١، ١٣٢، ضمن مجموعة رسائل الإمام الشهيد، نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ط ١، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

QaradawiBooks.com

وقد تحدَّث الأستاذ البنَّا عن وطنيَّة الحنين والعاطفة، ووطنيَّة الحريَّة، ووطنيَّة المجتمع وخدمته، ووطنيَّة المجد والفتح، وأشاد بها، ونوَّه بشأنها، وترحيب الإسلام بها، ولكنَّه رفض وطنيَّة الحزبية والانقسام، التي تؤدِّي إلى التباغض والتناحر وتفكُّك الروابط. وهذا مبنيٌّ على رأيه في إنكار الحزبيَّة وتعدُّد الأحزاب، وهو ما ناقشناه فيه في أكثر من كتابٍ لنا[١].

الوحدة الوطنية واختلاف الدين:

ثم يقول الأستاذ البنا: «وأحبُّ أن أنبِّهك إلى سقوط ذلك الزعم القائل: إنَّ الجري على هذا المبدأ يمزِّق وحدة الأمة التي تتألف من عناصر دينية مختلفة، فإنَّ الإسلام وهو دين الوَحدة والمساواة كفل هذه الروابط بين الجميع ما داموا متعاونين على الخير: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]. فمن أين يأتي التفريق إذن؟»[٢] اهـ.

مصر في نظر حسن البنا:

ويعود الأستاذ إلى فكرة «الوطنيَّة» أو «المصريَّة» بمعنى الانتماء إلى الوطن الخاصّ: مصر وحبِّها، والعمل على تحريرها والنهوض بها، فيخصُّها بحديثٍ جديرٍ بمكانتها فيقول:

---

(١) راجع ذلك في كتبنا: من فقه الدولة في الإسلام، والدين والسياسة، والتربية السياسية عند حسن البنا، والإخوان المسلمون.

(٢) رسالة دعوتنا صـ ٢٠ ـ ٢٢، ضمن مجموعة رسائل الإمام الشهيد، نشر المؤسسة الإسلامية، بيروت، ط ٣، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م، وراجع كتابنا: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، وبينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمتغربين صـ ٢١٣ ـ ٢٢٠، فصل: الحل الإسلامي والأقليات الدينية، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٩٨م.

QaradawiBooks.com

«إننـــا مصريون بهذه البقعـــة الكريمة من الأرض التـــي نبتنا فيها ونشـــأنا عليها. ومصر بلد مؤمن تلقَّى الإسلام تلقيًا كريمًا، وذاد عنه، وردَّ عنه العدوان فـــي كثيرٍ من أدوار التاريـــخ، وأخلص في اعتناقه، وطوى عليه أعطف المشـــاعر وأنبـــلَ العواطف، وهـــو لا يصلح إلَّا بالإسلام، ولا يُدَاوى إلَّا بعقاقيره، ولا يطبُّ له إلَّا بعلاجه. وقد انتهت إليه بحكم الظروف الكثيرة حضانة الفكرة الإسلامية، والقيام عليها، فكيف لا نعمل لمصر ولخير مصر؟ وكيـــف لا ندافع عن مصر بكلِّ ما نستطيع؟ وكيف يقال: إنَّ الإيمان بالمصرية لا يتَّفق مع ما يجب أن يدعو إليه رجل ينادي بالإســـلام ويهتف بالإســـلام! إنَّنـــا نعتزُّ بأنَّنا مخلصون لهذا الوطن الحبيب، عاملون له، مجاهدون في سبيل خيره، وســـنظلُّ كذلك ما حيينا، معتقديـــن أنَّ هذه هـــي الحَلْقة الأولى في سلسلة النهضة المنشـــودة، وأنَّها جزء من الوطن العربي العام، وأنَّنا حين نعمل لمصر نعمل للعروبة والشرق والإسلام.

وليس يضيرنـــا في هذا كلِّه أن نُعْنى بتاريـــخ مصر القديم، وبما سبق إليه قدماء المصريين الناسَ من المعارف والعلوم. فنحن نرحِّب بمصر القديمة كتاريـــخ فيه مجد وفيه علم ومعرفـــة. ونحارب هذه النظرية بكلِّ قوانا كمنهـــاج عملي، يراد صبغ مصر به ودعوتها إليه، بعد أن هداها الله بتعاليم الإســـلام، وشـــرح له صدرهـــا، وأنار به بصيرتها، وزادها به شـــرفًا ومجدًا فوق مجدها، وخلَّصها بذلك ممَّا لاحق هذا التاريخ مـــن أوضار الوثنيَّـــة، وأدران الشِّـــرك، وعادات الجاهلية»[1].

(١) رسالة دعوتنا في طور جديد صـ ٤٨٥، ضمن مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا.

QaradawiBooks.com

٢ ـ موقف المودودي من الوطنية والمواطنة:

لم أجد للأستاذ أبي الأعلى المودودي ـ فيما قرأتُ له ـ أيَّ كتابة فيها تعاطف مع فكرة «الوطنية»، وما يتبعها من المواطنة. بل وجدتُ منه هجومًا عليها، ونقدًا عنيفًا لها.

فقد كان يرى أنَّ أصلها غربي أو أوربي. وهو لا يستقي أفكاره من أيِّ منهل آخر غير الإسلام.

كما أنَّ إقراره بالوطنيَّة، ودعوة المسلمين إليها، قد يخاف من ورائها: أن تغيب هُوِيَّة الأقلية الإسلامية في الأكثرية الهندوسية. ولهذا وجَّه انتقادات عقلية حادَّة إلى فكرة القومية والوطنية.

نقد عناصر القومية (والوطنية) من ناحية العقل:

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ متحدِّثًا عن القومية والوطنية: «انظر فيها من حيث ذاتها وتفكَّر: هل لها أساس عقلي مستحكم أم هي لا تعدو في حقيقتها سرابًا في الفكر والتخيُّل؟

١ ـ النَّسلية أو العنصرية:

ما هي النسلية؟ الوحدة في الدم ولا غير، وما نقطة بدئها إلَّا نطفة الوالدين، تنشأ بها في عدد من البشر رابطة الدم، ثم تتَّسع وتظهر بمظهر الأسرة، فبمظهر العشيرة أو القبيلة، فبمظهر السلالة أو النسل. والإنسان إلى أن يبلغ هذا الحدَّ النهائي، يبعد عن والده الذي جعله المورث الأعلى لسلالته بُعدًا شاسعًا لا تبقى معه وراثته إيّاه إلَّا وهمًا من الأوهام الخياليَّة، وتنصبُّ في نهر سلالته المزعومة جداول كثيرة من الدم

QaradawiBooks.com

الخارجي، حتى لا يبقى في مقدوره أن يدَّعي أن نهره خالص، ليس فيه إلَّا ذلك الدم الذي كان بدأ جريانه من منبعه الأصلي.

وإذا كان للناس على الرغم من هذه الخلطة أن يقرِّروا سلالة من السلالات مادة لوَحدتهم، فماذا عليهم لو قرَّروا أساسًا لتوحُّدهم مشاركتهم في ذلك الدم الذي يربطهم جميعًا بأبيهم الأول وأمِّهم الأولى؟ وماذا يمنعهم أن ينسبوا الناس جميعًا إلى سلالة واحدة وأصل بعينه؟ وممَّا لا ريب فيه أنَّ الذين قد قرَّرهم الناس مورثين لسلالاتهم، يلتقون نسبًا إذا صعدوا ـ قليلًا أو كثيرًا ـ في شجرة نسبهم، ولا بد من الاعتراف ـ بآخرة ـ أنَّهم من أصل بعينه، فما المبرِّر إذن لافتراق الناس على هذه الصورة بين الآريين والساميين؟

٢ ـ الوطنية:

أما الوحدة في المولد والمنشأ، فهي أوهن من النَّسْلية وأوغل منها في الوهم والخيال، لأنَّ المكان الذي يولد فيه الإنسان لا يزيد في عرضه وطوله عن ذراع في ذراع، وهو إذا عدَّ هذا المكان المحدود وطنًا لنفسه، فلعله لا يستطيع أن يقول عن قطر ما في الأرض إنَّه وطنه، ولكنَّه يرسم حول هذا المكان خطًّا يبعد عنه أميالًا، بل مئات وآلافًا من الأميال في بعض الأحيان، ويقول: إنَّ وطنه يتَّسع إلى هذا الخط، وإن كلَّ ما وراءه لا علاقة به أبدًا.

فما كلُّ هذا إلَّا ضيق في نظره، وإلا فأيُّ شيء يمنعه أن يوسِّع هذا الخط إلى وجه الأرض من شرقه إلى غربه ومن جنوبه إلى شماله ويقول: إنَّه وطنه؟ لأنَّ الدليل الذي يمكن أن تتَّسع على أساسه قطعة

QaradawiBooks.com

صغيرة من الأرض إلى آلاف الأميال، من الممكن على أساسه هو أن تتَّسع هذه القطعة فتشمل وجه الأرض كلَّه.

والإنسان إن لم يضيِّق وجه نظره، فله أن يرى بدون لبْس ولا إبهام: أنَّ هذه البحار والجبال والأنهار التي قد جعلها بزعمه حدودًا، وفرَّق بها بين أرض وأرض، ليست كلُّها إلَّا أجزاء لأرض واحدة، فلماذا أعطى هذه البحار والجبال والأنهار حقًّا في حجزه لبقعة منها محدودة؟ وما له لا يقول إنَّه متوطِّن الأرض كلها، وأنَّ كلَّ مَن يسكن على وجه الأرض هو أخوه في الوطن، وله في كلِّ بقعة من بقاعها من الحقوق مثل ما له من تلك البقعة الصغيرة التي وُلد فيها، ولا تزيد في عرضها وطولها عن ذراع في ذراع؟»[1].

نظرية الإسلام الشاملة الجامعة:

وبعد هذه المناقشة العقلية لفكرة «القوم» و«الوطن» يعود بعد قليل ليحدِّثنا عن نظرية الإسلام الشاملة، والمعارضة للقومية والوطنية وأشباههما. يقول:

«فهذا بعَيْنه ما يقول به الإسلام ويدعو إليه الناس جميعًا. فهو لا يقرُّ بأيِّ فرق ماديٍّ ولا حسّيٍّ بين الإنسان والإنسان. ويقول للبشر قاطبة: إنكم جميعًا من أصل واحد ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

وأنَّ الاختلاف بينكم في المواطن أو المساكن أو المدافن ليس بشيء جوهري، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: ٩٨].

(١) راجع: بين الدعوة القومية والرابطة الإسلامية للمودودي صـ ١٨ ـ ٢٠، نشر دار العربية للطباعة والنشر، بيروت.

QaradawiBooks.com

وأنَّ حقيقة أجناسكم وقبائلكم ليست إلَّا من أب واحد وأم واحدة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾ [الحجرات: ١٣]. أي ليس هذا الاختلاف بين شعوبكم وقبائلكم إلَّا لتتعارفوا، لا لتتباغضوا وتتفاخروا وتتناحروا وتتحاربوا بينكم، فلا تنسوا في هذا الاختلاف وحدة أصلكم. وإذا كان بينكم فارق حقيقي، فإنَّما هو على أساس الأخلاق والأعمال.

وما هذه الفُرقة بين طوائفكم والاختلاف بين جماعاتكم إلَّا عذاب من الله أنزله لتذوقوا به وبال ما بينكم من البغضاء والمعاداة، ﴿ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍ ﴾ [الأنعام: ٦٥].

والإسلام يعدُّ هذه الطائفية من جملة الجرائم التي استحقَّ فرعون على أساسها اللعنة والعذاب الأليم: ﴿ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا ﴾ [القصص: ٤][1].

ويبيِّن أنَّ الأرض كلَّها لله، وهو الذي كرَّم بني آدم، وجعلهم خلفاءه فيها، وسخَّر لهم كلَّ ما فيها. فما للإنسان أن يتقيَّد في بقعة محدودة من هذه الأرض ويتَّخذها معبودًا له، بل إنَّ الأرض كلَّها مُدَّت لأجله. فإذا ضاقت عليه ناحية منها، فليذهب إلى ناحية أخرى. وهو أينما يسير، يجد نعم الله تعالى موجودة مبسوطة أمامه. ففي ذلك يقول ﷻ: ﴿ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ ﴾ [البقرة: ٣٠]، ويقول: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الحج: ٦٥]، ﴿ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ

(١) وهذه الآية تشير إلى جريمة فرعون التاريخية، إذ أثار الامتيازات بين أهالي مصر على أساس القبطي (المصري) وغير القبطي، وعامل أحدهما بما لم يعامل الآخر. (المودودي).

QaradawiBooks.com

فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]، ويقول: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠][(١)].

اقرأ القرآن من أوله إلى آخره، لا تجد فيه كلمة تبرِّر النَّسلية والوطنيَّة، لأنَّه يخاطب النوع البشري ويدعوه قاطبة إلى الخير والسعادة والفلاح، ولا يخصُّ بدعوته أمة دون أمة، أو بقعة من الأرض دون غيرها[(٢)]. وإذا كانت للإسلام علاقة خاصة ببقعة من الأرض، فإنَّما هي أرض مكة، ولكنَّه يصرِّح ـ مع ذلك ـ بأنَّ المسلمين، من أهل مكة كانوا أو من خارجها، كلُّهم متساوون في أرضها، فيقول: ﴿سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ [الحج: ٢٥][(٣)]، ويقول عن المشركين الذين كانوا سكان مكة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

---

(١) قال ابن عباس: المراغم: التحول من أرض إلى أرض، وقد قال النابغة بن جعدة:

كطود يلاذ بأركانه عزيز المراغم والمهرب

وهذا تحريض على الهجرة ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. وترغيب في مفارقة المشركين، وأنَّ المؤمن حيثما ذهب وجد عندهم مندوحة، وملجأ يحتضنه. وليست هذه الهجرة للثراء أو للنجاة من المتاعب، أو هجرة للذائد والشهوة، أو هجرة لأي عرض من أعراض الحياة. وإنَّما هي هجرة في سبيل الله حيث يقام شرع الله، وليست تهربًا من المسؤولية وجبنًا، ولكنها مرحلة إعداد وتقوية بنيان للعود الظافر والنصر المؤزر. (المودودي).

(٢) ولست أدري سوى الإسلام لي وطنًا الشام فيه ووادي النيل سيان
وحيثما ذكر اسم الله في بلد عددت أرجاءه من لبِّ أوطاني

(٣) وبموجب هذه الآية لا تسلِّم طائفة كبيرة من فقهاء الإسلام لأحد من الناس بأي حق للملكية في أرض مكة. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ينهى عن تبويب دور مكة لينزل الحاج في عرصاتها. ويقول النبي ﷺ: مكة حرام لا يحل بيع رباعها، ولا أجور بيتها. رواه ابن أبي شيبة في الحج (١٤٨٩٨) عن مجاهد مرسلًا. ويقول: إنَّما هي مناخ من سبق. رواه أبو داود في المناسك (٢٠١٩)، والترمذي في الحج (٨٨١) وحسَّنه، عن عائشة. هذا كله عن أرض مكة التي خصها الله بمزايا ليست لغيرها. (المودودي).

QaradawiBooks.com

فهذا التصريح يستأصل شأفة الوطنيَّة في الإسلام ولا يبقى بعده لمسلم إلَّا أن يقول، كما عبَّر الشاعر الفارسي بما معناه بالعربية: كلُّ بلاد الأرض بلاده لأنَّها ليست إلَّا ملك ربه»[1].

أعتقد أنَّ كلام الأستاذ الكبير المودودي رَحِمَهُ اللَّهُ، لم يخل من غلوٍّ في النظرة والتحليل، فإنَّ انتماء الإنسان إلى وطنه حقيقة فطرية، وحقيقة واقعية، وإن فكرة الوطنية في حدِّ ذاتها ليست مشكلة، إلَّا إذا تعارضت مع الدين، أو اقترنت بالعلمانية، أو وضعت بديلًا عن الدين، كما بيَّنا ذلك من قبل.

وربما كان وضع الأستاذ المودودي وقيام دعوته في الهند الكبرى، التي يتمتَّع فيها الهندوس الوثنيون بأغلبية كبيرة، يُخشَى على المسلمين أن يذوبوا فيها، إذا نسُوا انتماءهم الديني: هو الذي ترك أثره في تفكير هذا الإمام. والإنسان ابن بيئته، كما أنَّه ابن عصره.

الدين لله والوطن للجميع:

ومن الكلمات التي تروج في المحيط العلماني، والمحيط الليبرالي: كلمة: «الدين لله والوطن للجميع».

وهي تُقال في مقابل الذين يتمسَّكون بالدين ويرجعون إليه في حياتهم من مسلمين ومسيحيين وغيرهم، فيقولون لهم: الدين لله. وكأنَّ هؤلاء المتدينين يجحدون هذه الحقيقة: أنَّ الدين لله. والواقع أن كلَّ المؤمنين أو كلَّ المتدينين يؤمنون بأنَّ الدين لله.

(١) راجع: بين الدعوة القومية والرابطة الإسلامية صـ ٢٦ ـ ٣٠.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

بل رأينا الإسلام يأمر بالقتال حتى يقرَّ هذه الحقيقة في الواقع: أن يكون الدين لله، فيقول تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقال في مقام آخر: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

فهو يريد أن يستخلص الدين من أيدي الذين يتلاعبون به، ويريدون أن يكون في خدمة فئة أو شعب أو فرد من الناس، بل يجب أن يُخلَّص الدين من كلِّ تبعيَّة لغير الله، ويكون لله وحده، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

فما يريده هؤلاء من عبارتهم: الدين لله: ليس من الدين في شيء، إذ يُراد بها عزل الدين عن الحياة، وعن توعية الناس، وردِّهم إلى الله، وإلى صراطه المستقيم.

والحقيقة: أنَّ العبارة المذكورة (الدين لله والوطن للجميع) نستطيع أن نقلبها على كلِّ الوجوه التي تقتضيها القسمة العقلية هنا.

فيمكنك أن تقول: الدين لله والوطن لله. على معنى أنَّ الأرض كلَّها لله، والكون كلَّه لله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

ويمكن أن تقول: الدين للجميع والوطن للجميع. فكما لا يُحرم أحد من الوطن: لا يُحرم أحد من الدين.

ويمكنك أن تقول: الدين للجميع والوطن لله.

كما يمكنك أن تقول ما قالوا: الدين لله والوطن للجميع.

QaradawiBooks.com

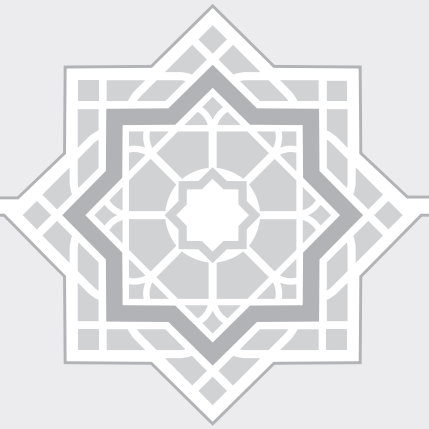

الفصل الثاني

مواطنة المسلم في غير المجتمع الإسلامي

(الأقليات المسلمة)

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

موقف المسلمين في غير المجتمع الإسلامي

في الصحائف السابقة، تحدَّثنا عن «المواطنة» بخصوص غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، وهنا نتحدَّث عن «المواطنة» بخصوص المسلمين في غير المجتمع الإسلامي.

أعني: الأقليَّات المسلمة، التي تعيش في أوربا وأمريكا والشرق الأقصى وإفريقيا وغيرها. وخصوصًا إذا كان هؤلاء المسلمون من أصول مهاجرة آسيوية أو إفريقية.

فكيف ينظر أهل البلاد إلى هؤلاء المسلمين، ولا سيما الذين حصلوا على جنسية هذه البلاد؟ هل يعتبرونهم غرباء عنهم، أو دخلاء عليهم، أجانب منهم، وإن حملوا جنسية البلاد؟ أو يعتبرونهم مواطنين، لهم ما لهم من حقوق، وعليهم ما عليهم من واجبات، وإن كانوا مخالفين لهم في الدين أو في الأصل أو في اللون؟

وكيف ينظر المسلمون أنفسهم إلى موقفهم من المجتمع الذي يعيشون فيه: هل يعتبرون أنفسهم جزءًا منه أو لا زالوا يعدُّون أنفسهم غرباء عنه؟ هل ينعزلون عن المجتمع ويحيَون وحدهم، منغلقين على أنفسهم؟ أو يندمجون في المجتمع ويتفاعلون معه، ويؤثِّرون فيه، ويتأثَّرون به؟

نسخة مجانية

لبيان الإجابة عن هذه الأسئلة: يجب علينا توضيح الحقائق التالية أو الأحكام الشرعية التالية:

١ ـ حكم الإقامة في بلاد غير المسلمين.

٢ ـ حكم التجنُّس بجنسية دولة غير إسلامية.

٣ ـ فإذا جازت الإقامة والتجنُّس، وكان كلاهما أمرًا مشروعًا، فما حكم الاندماج في المجتمع غير المسلم؟

٤ ـ وهل يشرع للمسلم أن يقبل «المواطنة» في هذا المجتمع، ويصبح واحدًا من أهل هذا الوطن في الحقوق والواجبات، أو لا يحلُّ له أن يعطي هذا الوطن الجديد: ولاءه وانتماءه، ويحمل همَّ ازدهاره وتقدُّمه والدفاع عنه في مواجهة أيِّ عدوان عليه، ولو كان ذلك العدوان من بلد إسلامي؟

٥ ـ ثم ما الموقف إذا كانت الأقلية المسلمة تريد الاندماج في أهل البلد، وأهل البلد يضيِّقون عليهم، ولا يقبلونهم شركاء لهم، ويعاملونهم معاملة الدخلاء عليهم؟

حكم الإقامة في بلد غير إسلامي:

أما حكم الإقامة في بلد غير إسلامي، فهذا يختلف باختلاف حال أهل هذا البلد، وموقفه من الإسلام والمسلمين.

فمن البلاد مَا يضطهد المتديِّنين عامَّة، ويقف من الدين موقف المعادي، مثل البلاد الشيوعية أيام سطوتها، والتي تقوم فلسفتها على الإلحاد وجحود الألوهية والنبوة والآخرة، وتقول: لا إله والحياة مادة فحسب. وتعلن: أنَّ الدِّين أفيون الشعوب.

QaradawiBooks.com

فهي تصـــادم الأديان جميعًا، وتخصُّ الإســـلام بمزيد مـــن العداوة والنقمـــة، لأنَّه دين جهاد ونضال، ويغذِّي الشـــعوب بالأفـــكار الرافضة للشيوعية عقيدةً ونظامًا، ويطاردها بوصفها لونًا من الاستعمار الإمبريالي.

فمَن كان من أهل البلاد من المســـلمين، فعليـــه أن يصبر ويصابر ويرابط، ولا يفـــرِّط في دينه بـــكلِّ ما يملك من قـــوَّة وطاقة، ويعمل بأحكام الضرورة فيما لا طاقة له به، معتبرًا نفسه في حال إكراه واضطرار، وقد قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٥].

وأما مَـــن أراد أن يهاجر إليها من بلد مســـلم، فهـــذا الذي نقول له: لا يحلُّ لك أن تترك بلدك المسلم، الذي تستطيع أن تقيم فيه شعائرك، وتؤدِّي عباداتك، وتذهب إلى بلد يضيِّق عليك، ويضعك تحت المراقبة، ولا يتيح لك العمل ـ كما تريد ـ بالإسلام، ناهيك عن العمل للإسلام، والدعوة إلى الإسلام.

وفي الحديث النبوي: «**لا ينبغي لمؤمن أن يذلَّ نفسه!**». قالوا: وكيف يذلُّ نفسه، يا رسول الله؟ قال: «**يُحَمِّلها من البلاء ما لا تُطيق**»[(١)].

وإذا كان الإسلام يوجب على المســـلم الهجرة من بلده الأصلي إذا ضُيِّق عليه فيه، ولم يمكَّن من إقامة أركانه، وهو ما ســـمَّاه القرآن «ظلم النفس»، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ

(١) رواه أحمد (٢٣٤٤٤)، وقال مخرِّجوه: إســـناده ضعيف. والترمذي (٢٢٥٤)، وقال: حسن غريب. وابن ماجه (٤٠١٦)، كلاهما في الفتن، وحسَّنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٤٣)، عن حذيفة.

QaradawiBooks.com

فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۞ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۞ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء: ٩٧ ـ ٩٩].

أقول: إذا كان يوجب الهجرة لمثل هـذا من بلده، فكيف يذهب مختارًا إلى بلد يظلم فيه نفسه، ويُحرم فيه من إقامة دينه؟!

وهناك بلاد يسود فيها مناخ الحرية: الحرية الدينية، والحرية المدنية، والحرية الفكرية، والحرية السياسية، وغيرها من الحريات، ولا تتدخَّل في دين أحد، بل تَدَع كلَّ إنسان وما اختار لنفسه، وتلك هي البلاد الديمقراطية الليبرالية، وإن اتَّخذت مبدأ العلمانية شعارًا لها. فالأصل في العلمانية: أنَّها تقف من الدين موقفًا محايدًا، لا تؤيِّده ولا تعاديه، بل تعدُّه أمرًا شخصيًّا لكلِّ فرد فيما بينه وبين ربِّه، الذي آمن به، وتعبَّد له، أيًّا كان هذا الرب أو الإلٰه.

وهذا هو المناخ الذي كان سائدًا في أوربا وأمريكا طوال القرن العشرين، والذي سمح باستقبال أفواج كبيرة تقدر بالملايين من بلاد العرب والمسلمين، لأسباب شتَّى، منها العمالة، التي كانت أوربا في أمسِّ الحاجة إليها، وخصوصًا بعد الحرب العالمية الثانية.

وفي هذا المناخ لا أرى بأسًا من هجرة المسلم إلى بلاد أوربا التي يدين أغلبها بالنصرانية (المسيحية) والإقامة فيها، إذا كان ذلك لأهداف مشروعة، مثل: العمل وكسب المعيشة، حيث تضيق فرص العمل الملائم في بلده، وتتَّسع في هذه البلاد، فالسعي في طلب الرزق، والمشي في مناكب الأرض مشروع للمسلم.

QaradawiBooks.com

وقد استقبلت فرنسا وألمانيا وبريطانيا وغيرها: الألوف، بل الملايين للعمل في شتَّى نواحي الحياة، من بلاد الشمال الإفريقي، وغيرها من بلاد إفريقيا، ومن تركيا، ومن شبه القارة الهندية وغيرها.

وقد قال الشاعر:

بِلادُ اللهِ واسِعةٌ فضَاها ورزقُ اللهِ في الدَّنْيا فسِيحُ
فقُلْ للقاعِدينَ على هَوانٍ إذا ضاقَتْ بكُمْ أرضٌ فَسيحوا[1]

وقال تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [المزمل: ٢٠].

ومثل طلب الرزق: طلب الأمن، إذا كان يشعر في بلاده بالخوف على نفسه أن يسجن أو يعتقل أو يحاكم محاكمة عسكرية ظالمة، أو الخوف على أهله وولده، أو الخوف على ماله وأملاكه، وقد رأى العبرة في أمثاله وقرنائه، فأراد أن يبحث عن مكان يأمن فيه على دينه ونفسه وأهله وماله. فمن حقِّ الإنسان أن يبحث عن أمنه وأمن أسرته، فإنَّ حاجة الإنسان إلى الأمن من خوف، كحاجته إلى الطعام من جوع، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ [قريش: ٤].

واعتبر القرآن الجوع والخوف شرَّ ما تبتلى به المجتمعات، ﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢].

ولهذا حين استقبل سيدنا يوسف عليه السلام أبويه وإخوته في مصر قال لهم: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٩].

(١) من شعر شداد بن إبراهيم الجزري، كما في معجم الأدباء للحموي (١٤١٥/٣)، تحقيق إحسان عباس، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

QaradawiBooks.com

ومثل طلب الرزق، وطلب الأمن: طلب الدراسة، ولا سيما في التخصُّصات التي لا تتوافر في بلاد المسلمين، وإذا توافرت كانت مستوياتها وإمكاناتها متواضعة، فيذهب الطالب للدراسة، ثم تحلو له الإقامة لسبب أو لآخر، فيختار الإقامة في هذا البلد أو ذاك.

وكلُّ هذا يسوِّغ الإقامة في تلك البلاد، بشرط ألَّا يخاف على دينه ودين أهله وذريَّته من شيوع نزعة التحلُّل والإباحية في هذه المجتمعات، وانتشار الموجة المادية التي تستخفُّ بالأديان والإيمان بالغيب، والاهتمام بالدار الآخرة. فمَن وجد في هذه الديار خطرًا على دينه أو دين أولاده، فلا تحلُّ له الإقامة هناك، وإن كان يكسب فيها الملايين، فما قيمة أن يكسب المسلم الدنيا ويخسر الدين؟ وما قيمة أن يربح الأموال ويفقد الأولاد؟

وقد قلتُ في أواسط السبعينيات للإخوة المسلمين المهاجرين إلى أمريكا: إذا كنتم تحسُّون بخطر على دينكم أو دين ذراريكم، فابدؤوا رحلة العودة من الغد! فليس هناك عند المسلم شيء أغلى وأعز من الدين. وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

وأهم من الأهداف السابقة كلها: هدف من يهاجر ليقيم في تلك البلاد، ابتغاء تبليغ دعوة الإسلام إلى أهلها، امتثالًا لما أمر الله به ورسوله من تبليغ الرسالة، التي بلَّغها رسول الإسلام في حياته، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧].

QaradawiBooks.com

ونحن مأمورون أن نأتسي برسول الله، ونبلِّغ الرسالة كما بلَّغها إلى الناس، فالأمة مبعوثة بما بُعث به رسولها ﷺ، وقد قال لأُمَّته: «**إنَّما بُعثتم مُيَسِّرين، ولم تبعثوا مُعَسِّرين**»(١).

وقال الصحابي رِبعي بن عامر لرستم قائد الفرس: إنَّ الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سَعتها، ومن جَور الأديان إلى عدل الإسلام!(٢).

وبهذا تتحقَّق «عالمية الرسالة الإسلامية» كما صوَّرها القرآن، الذي يقول في مخاطبة الرسول الكريم: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ولا ريب أنَّ الإقامة بين المبلَّغين تُعين على قوَّة التأثير فيهم بالقول والفعل والأسوة الحسنة، وتردُّ على كلِّ تساؤل ردًّا مباشرًا، وهذا هو أسلوب المسلمين في القرون الأولى: أن يقيموا بين ظهراني الناس، ويختلطوا بهم، ويشاهدوا أخلاقهم وسلوكياتهم، ويتأثَّروا بهم ويحبُّوهم، فيحبُّوا دينهم بحبِّهم، فأظهر وأقوى ما أثَّر في الأمم هو: سلوك المسلمين المثالي، الذي لم يروا مثله في الأمم الأخرى.

فمَن أراد أن يذهب إلى تلك البلاد غير المسلمة بنيَّة الدعوة إلى الإسلام، ونشر دين الله فيها، وكان مؤهَّلًا لذلك، بما يملك من ثقافة إسلامية واعية، كما يملك معرفة لغة القوم التي يخاطبهم بها، كما قال

(١) رواه البخاري في الوضوء (٢٢٠)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه الطبري في تاريخه (٥٢٠/٣)، نشر دار التراث، بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ.

QaradawiBooks.com

تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ [إبراهيم: ٤]. وكذلك يملك إيمانًا عميقًا برسالته، كما يملك خُلقًا حسنًا، وقدرة على التعامل الإيجابي مع الناس.

بل المطلوب من المسلمين: أن يكون لهم في كلِّ أنحاء العالم، ألسنة صدق تدعو إلى دينهم بلسان الأقوام المدعوَّة، فهذا يعتبر من فروض الكفاية الواجبة على مجموع الأمَّة بالتضامن، فإذا قام به البعض بصورة ملائمة، وبعدد كافٍ: سقط الإثم عن سائر الأمة، وإلَّا سقطت الأمة كلُّها في الحرج والإثم.

إقامة المسلمين المهاجرين إلى الحبشة في ظلِّ حكم غير إسلامي:

ومن الدلائل على مشروعية إقامة المسلم تحت سلطان دولة غير إسلامية: بقاء المسلمين في الحبشة بعد قيام دولة الإسلام في المدينة بقيادة رسول الله ﷺ، واستمرار بعضهم فيها لعدَّة سنوات. حتى إنَّ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، لم يقدم على المدينة إلَّا في السنة السابعة بعد الهجرة، أي عند فتح خيبر، وقد فرح النبيُّ ﷺ بمقدمه، وقال: «**لا أدري بأيِّهما أُسَرُّ: بفتح خيبر، أم بقُدُوم جعفر**»[(١)].

لا أستدلُّ هنا بمجرَّد الهجرة إلى الحبشة، وبقاء المسلمين بها قبل الهجرة، والحبشة بلد يحكمه ملك نصراني، فمن المنطقي أن يقال: إنَّ المسلمين هنا كانوا في حالة اضطرار للهجرة إلى هذا البلد والبقاء فيه، وللضرورات أحكامها الاستثنائية. كما كان الرسول والمسلمون في مكة تحت سلطان أهل الشرك من قريش.

(١) رواه الحاكم في تواريخ المتقدمين (٦٢٤/٢)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، عن جابر.

QaradawiBooks.com

بل الذي أستدلُّ به هنا، هو: إقامتهم في الحبشة بعد الهجرة إلى المدينة، وتأسيس دولة الإسلام بها، ووجود «دار» مستقلَّة للإسلام، تنتشر منها دعوته، وتحكم فيها شريعته، وينطلق منها جنوده. فهذا يدلُّنا على أنَّ المسلم يستطيع أن يعيش في كَنَف دولة غير مسلمة، ولا يفرض عليه الهجرة منها، ما دام يعيش فيها آمنًا على نفسه وأهله ودينه وحرماته. لا يضطهده أحد، ولا يفتنه عن دينه... وإلَّا وجب عليه أن يفارقها مهاجرًا، حتى لا يكون من الذين تتوفَّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم[1].

شبهات تثار حول الإقامة في بلاد غير المسلمين:

ومن المسلمين ـ ولا سيما المتشدِّدين ـ مَن يُثير شبهات شرعية، حول إقامة المسلم في بلاد غير إسلامية، معتمدين على بعض الأحاديث المرويَّة عن رسول الله ﷺ.

من هذه الأحاديث، قوله عليه الصلاة والسلام: «**أنا بريء من كلِّ مسلم يقيم بين أظهر المشركين**». قالوا: لِمَ يا رسول الله؟ قال: «**لا تتراءى ناراهما**».

وحديث: «**مَن جامع مشركًا، وسكن معه، فهو مثله**».

ولا بدَّ لنا من وقفة مع هذين الحديثين، لنرى مدى صحَّتهما سندًا، فإذا ثبتا من ناحية السند، لا بدَّ من نظرة في دلالة المتن أو النصِّ، وهل ما استُنبط منهما صحيح مقبول أو لا؟

---

(١) إشارة إلى الآيات الكريمة من سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۞ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۞ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧ ـ ٩٩].

QaradawiBooks.com

١ ـ حديث: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين»:

أما حديث: «**أنا بريء من كلِّ مسلم يقيم بين أظهر المشركين، لا تتراءى ناراهما**»[(١)].

فقد فهم منه البعض: تحريم الإقامة في بلاد غير المسلمين، وأفتى بذلك مفتون في بلاد شتَّى، وضيَّقوا بذلك على المسلمين الكثيرين الذين يعيشون في أوربا وغيرها، مع تعدُّد الحاجة إلى ذلك في عصرنا: للتعلُّم، والتداوي، وللعمل، وللتجارة، وللسفارة، وللفرار من الاضطهاد، ولنشر الدعوة، ولتعليم المسلمين الجدد وتثبيتهم، ولغير ذلك، وخصوصًا بعد أن تقارب العالم حتى غدا كأنَّه «قرية كبرى» كما قال أحد الأدباء! والحقيقة: أنَّه أصبح ـ من الناحية المادية[(٢)] ـ قرية صغرى!

والحديث الذي اعتمدوا عليه رواه أبو داود والترمذي عن جرير بن عبد الله مسندًا ومرسلًا، أي بدون ذكر الصحابي، وذكروا أنَّ الصحيح هو

---

(١) روي موصولًا ومرسلًا: فرواه موصولًا أبو داود في الجهاد (٢٦٤٥)، والترمذي في السير (١٦٠٤) والطبراني (٣٠٣/٢)، والبيهقي في القسامة (١٣١/٨)، عن جرير بن عبد الله.
ورواه مرسلًا: الترمذي في السير (١٦٠٥)، والنسائي في القسامة (٤٧٨٠)، وسعيد بن منصور في الجهاد (٢٦٦٣)، وابن أبي شيبة في المغازي (٣٧٧٨٥)، والبيهقي في القسامة (١٣٠/٨)، عن قيس بن أبي حازم.
ورجَّح المرسل: البخاري فيما نقله عنه الترمذي في العلل الكبير (٤٨٣)، وأبو حاتم في العلل (٩٤٢)، وأبو داود عقب الحديث رقم (٢٦٤٥): رواه هشيم، ومعمر، وخالد الواسطي، وجماعة لم يذكروا جريرًا، والترمذي عقب حديث رقم (١٦٠٥)، والنسائي (٤٧٧٩)، والدارقطني في العلل (٣٣٥٥)، والبيهقي في معرفة السنن والآثار (١٦٤٣٥).
وانظر: تخريج الكشاف للزيلعي (٤٠١/١ ـ ٤٠٣)، تحقيق عبد الله بن عبد الرحمٰن السعد، نشر دار ابن خزيمة، الرياض، ط١، ١٤١٤هـ.

(٢) نقول: من الناحية المادية، لأنَّه من الناحية المعنوية أمسى أكثر تباعدًا مما كان قبل!

QaradawiBooks.com

المرسل. ولم يروه النسائي إلَّا مرسلًا، وبعد أن رواه الترمذي مرسلًا، قال: هذا أصحُّ، ونقل عن البخاري: الصحيح المرسل، وكذا قال أبو حاتم الرازي والدارقطني. والاحتجاج بالمرسل: فيه الخلاف المشهور في علم الأصول، وعامَّة أهل الحديث يعدُّون المرسل في الحديث الضعيف.

ونصُّ الحديث: بعث رسول الله ﷺ، سرية إلى خثعم، فاعتصم ناس منهم بالسجود، فأسرع فيهم القتل، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأمر لهم بنصف العَقْل (أي الدية)، وقال: «**أنا بريء من كلِّ مسلم يقيم بين أظهر المشركين**». قالوا: يا رسول الله، لِمَ؟ قال: «**لا تتراءى ناراهما**» انتهى. ومعنى: «**لا تتراءى ناراهما**»: أي لا يتجاوران ولا يتقاربان، بحيث ترى نار كلٍّ منهما نار الآخر، وهو كناية عن بُعد ما بينهما.

وإنَّما جعل لهم نصف الدية وهم مسلمون؛ لأنَّهم أعانوا على أنفسهم، وأسقطوا نصف حقِّهم[1] لإقامتهم بين المشركين المحاربين لله ولرسوله ﷺ، وشدَّد في مثل هذه الإقامة التي يترتَّب عليها مثل ذلك من القعود عن نصر الله ورسوله، والله تعالى يقول في أمثال هؤلاء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ﴾ [الأنفال: ٧٢].

(١) قال الإمام الخطابي في تعليل إسقاط نصف الدية: لأنَّهم قد أعانوا على أنفسهم بمُقامهم بين ظهراني الكفار، فكانوا كمَن هلك بجناية نفسه، وجناية غيره، فسقطت حصَّة جنايته من الدية. انظر: معالم السنن (٢/٢٧١)، نشر المطبعة العلمية، حلب، ط١، ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م.

QaradawiBooks.com

فنفـى تعالى ولاية المسـلمين غيـر المهاجرين، إذ كانـت الهجرة واجبـة[١]، فمعنى قوله ﷺ: «**أنـا بريء من كلِّ مسـلم يقيم بين أظهر المشـركين**»: أي بريء من دمه إذا قُتل؛ لأنَّه عرَّض نفسه لذلك بإقامته بين هؤلاء المحاربين لدعوة الإسلام، ولدولة الإسلام.

ومعنى هذا: أنَّه إذا تغيَّرت الظـروف التي قيل فيها النص، وانتفت العِلَّـة الملحوظة مـن ورائه، من مصلحـة تُجلب، أو مفسـدة تُدفع، فالمفهوم أن ينتفي الحكم الذي ثبت من قَبْلُ بهذا النصِّ، فالحكم يدور مع عِلته وجودًا وعدمًا[٢].

وممَّا يقوِّي هذا الحديث: ما جاء في مسند أحمد برقم (١٩٢٣٨)، عن جرير رضي الله عنه قال: أتيتُ رسـول الله ﷺ أبايعه، فقلتُ: هاتِ يدك، واشترط عليَّ، وأنت أعلم بالشـرط، فقال: «**أبايعك على ألَّا تشـرك بالله شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتنصح المسلم، وتفارق المشرك**».

قال مخرِّجوه: هذا حديث صحيح. ورواه النسائي في البيعة (٤١٧٧)، والطبراني في الكبير (٣١٤/٢)، والبيهقي في الكبرى كتاب السِّيَر (١٣/٩).

وفي بعض روايات هذا الحديث في المسند (١٩١٥٣) بلفظ: «**وتنصح للمسلم، وتَبْرَأ من الكافر**».

---

(١) كانت الهجرة واجبة في أول الإسـلام على كلِّ مَن أسـلم، لينضمَّ إلى الرسول وأصحابه بالمدينة، ليتعلَّم الإسلام، ويمارسه بحريَّة، ويقوِّي شـوكة الجماعة المسلمة، فلما فُتحت مكة، ارتفعت الحاجة إلى الهجرة إلى المدينة، وقال الرسـول الكريم ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية**». متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد (٢٧٨٣)، ومسلم في الإمارة (١٣٥٣)، عن ابن عباس.

(٢) انظر كتابينا: دراسة في مقاصد الشريعة صـ ١٦٨ ـ ١٧٠، نشر دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م، وفي فقه الأقليات صـ ٣٨، نشر دار الشروق، القاهرة، ط٢، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

QaradawiBooks.com

وقال مخرِّجوه: حديث صحيح. ورواه الطبراني في الكبير (٣١٤/٢).

ويؤيده حديث بَهْز بن حَكِيم، عن أبيه، عن جَدِّه، وفيه: «**لا يَقْبَلُ الله من مشرك بعدما أسلم عملًا أو يفارقَ المشركين إلى المسلمين**».

رواه أحمد في المسند (٢٠٠٤٣)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. ورواه النسائي في الزكاة (٢٥٦٨)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٣٦)، والحاكم في الأهوال (٦٤٣/٤)، وصحَّح إسناده ووافقه الذهبي.

وممَّا جاء في مسند أحمد (٢٠٧٤٠) في هذا المعنى ما رواه، عن يزيد بن عبد الله بن الشِّخِّير قال: كنا بالمِربَد جلوسًا، فأتى علينا رجل من أهل البادية، لما رأيناه قلنا: كأنَّ هذا رجل ليس من أهل البلد! قال: أجل. فإذا معه كتاب في قطعة أديم ـ قال: وربما قال: في قطعة جراب ـ فقال: هذا كتاب كتبه لي رسول الله ﷺ، فإذا فيه: «**بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي رسول الله ﷺ لبني زهير بن أُقَيْش، وهم حي من عُكْل: إنَّكم إن أقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وفارقتم المشركين، وأعطيتم الخمس من المغنم، ثم سهم النبي ﷺ والصَّفِي** ـ وربما قال: وصفيه ـ **فأنتم آمنون بأمان الله تبارك وتعالى وأمان رسوله**».

قال مخرِّجوه: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير صحابيه. ورواه البيهقي في الكبرى كتاب قسم الفيء والغنيمة (٣٠٣/٦).

٢ ـ حديث: «مَن جامع مشركًا وسكن معه، فهو مثله»:

وأما الحديث الآخر الذي يعتمد عليه مَن يعتمد في تحريم الإقامة مطلقًا في بلاد غير المسلمين. فهو حديث: «**مَن جامع مشركًا وسكن معه، فهو مثله**».

QaradawiBooks.com

ومعنى «جامعه»: أي اجتمع به وضمَّهما مكان واحد، وقد فسَّر ذلك قوله: «وسكن معه». ومعنى «فهو مثله»: أي في الإثم، كأنَّه نوع من التولِّي له، والله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

وأبادر هنا فأقول: إنَّ هذا الحديث ضعيف، فقد رواه أبو داود في الجهاد (٢٧٨٧)، عن سمرة بن جندب، من طريق جعفر بن سعد، عن خبيب بن سليمان بن سمرة، عن أبيه، عن سمرة، وهو إسناد ضعيف بالإجماع[١].

(١) رواه أبو داود في الجهاد (٢٧٨٧)، والطبراني (٢٥١/٧)، والحاكم في قسم الفيء (١٤١/٢، ١٤٢)، وقال: على شرط البخاري. وقال الذهبي: على شرط البخاري ومسلم. وقال الألباني في إرواء الغليل (٣٢/٥): سنده ضعيف، وله طريق أخرى أشد ضعفًا منها، أخرجه الحاكم، وشاهد آخر عند الحاكم (٥٠٥/٣). وقال الألباني: وفيه بريدة بن سفيان الأسلمي، ليس بالقوي. ومع هذا قال في الصحيحة (٢٣٣٥): فالحديث عندي حسن بمجموع الطريقين، ولا سيما وقد مضى شاهد بنحوه فراجعه برقم (٦٣٦). على أنَّ الألباني لم يكتفِ بتحسينه، بل ذكر في صحيح أبي داود أنَّه صحيح (٢٤٢٠).
مع أنَّ الحديث بهذا الإسناد مجمع على ضعفه، بل هو في الحقيقة شديد الضعف، ومثله لا يقبل التقوِّي بغيره. فقد طعن فيه ابن حزم في المحلى (٢٣٤/٥)، بهذا السند بأن رواته: مجهولون لا يُعرف مَن هم. وقال ابن القطان الفاسي في بيان الوهم والإيهام (١٣٨/٥) على هذا الإسناد في حديث آخر: إسناد مجهول البتة، وما من هؤلاء من تعرف له حالٌ، وقد جهَد المُحدِّثون فيهم جهدهم، وهو إسناد تروى به جملة أحاديث قد ذكر البزار منها نحو المائة. وقال الذهبي في ميزان الاعتدال بعد أن ذكر هذا الإسناد: وفي سنن أبي داود من ذلك ستة أحاديث، هذا إسناد مظلم لا ينهض بحكم (٣٧٣/١).
ومع هذا حاول العلَّامة الألباني أن يقوِّيه ببعض الطرق الضعيفة التي لا تجبر مكسورًا. والحقيقة أنِّي ألاحظ على المتأخرين من أهل الحديث: التوسُّع في التحسين والتصحيح بكثرة الطرق، مع أن كلًّا منها ضعيف في نفسه، وهو على خلاف منهج الأئمة المتقدمين من أمثال البخاري وابن معين وغيرهما.

QaradawiBooks.com

نظرة في دلالة الأحاديث:

وإذا تأمَّلنا في متون هذه الأحاديث ودلالتها تبيَّن لنا ما يلي:

أولًا: أنَّها تتحدَّث عن (المشركين) وفراق (المشركين). والمشركون كما ذكرنا تعني عُبَّاد الأصنام. ونحن بصدد الحديث عن أهل الكتاب وخصوصًا المسيحيين منهم.

ثانيا: أنَّ لفظة (المشركين) إذا أُطلقت في ذلك الوقت، تعني: المشركين المحاربين، الذين أعلنوا العداوة للإسلام ورسوله، وصدُّوا عن سبيل الله، وشهروا السيف على دعوة الإسلام، وفتنوا المؤمنين به، وعذَّبوهم، وأخرجوهم من ديارهم، حتى يرغموهم على الرجوع عن دينهم.

وهؤلاء هم الذين يُنْهَى المسلمون أن يُوالوهم ويرتبطوا بهم، بخلاف المشركين المسالمين الذين لم يقاتلوا المسلمين في الدين، ولم يخرجوهم من ديارهم. وهو ما قرَّره القرآن بوضوح في آيتين كريمتين من سورة الممتحَنة تعتبران دستورًا للعلاقة بين المسلمين وغيرهم، يقول تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

ثالثًا: يجب أن نحدِّد المقصود من (فراق المشرك) في هذه الأحاديث التي كان من وصاياها: «وتفارق المشرك». فما المراد بكلمة «الفراق» هنا؟ أهو الفراق الحسّي أم الفراق المعنوي؟

وإذا قلنا: إنَّ الفراق الحسّي هو المراد، فقد يكون معناه الانتقال من دار الشرك إلى دار الإسلام، ولا سيما إذا كان المسلم مضيَّقًا عليه في دار

QaradawiBooks.com

الشرك. وهذا ما قد يُفهم من حديث بَهْز بن حكيم: «**أو يفارق المشركين إلى المسلمين**». وهذا هو ما كان واجبًا على كلِّ مَن أسلم: أن يهاجر من بلده إلى المدينة، حتى كان فتح مكة، وبها ظهر الإسلام، وأثبت وجوده وقوَّته، وأصبح الرسول ﷺ: سيِّدَ الجزيرة. وهنا قال ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونيَّة، وإذا استُنفرتم فانفروا**»[1]. وهذا بالنظر إلى حديث بَهْز بن حكيم لا إشكال فيه.

ولكنَّ الإشكال في حديث جرير، أنَّه قد يعكِّر على هذا الفهم أنَّ جريرًا رضي الله عنه، إنَّما أسلم في السنة التي توفي فيها رسول الله ﷺ، وبعد أن نسخ وجوب الهجرة.

ولعل هذا ما يؤيِّد الفهم الآخر لمفارقة المشركين في حديث جرير، وهو المفارقة المعنوية: أيْ مفارقتهم في عقائدهم، وفي مفاهيمهم، وفي أخلاقيَّاتهم، التي أفسدتها الوثنيَّة، وجنت عليها الجاهليَّة.

وممَّا يقوِّي هذا الفهم: أنَّ بعض روايات الحديث جاء بلفظ: «وتبرأ من الكافر». والبراءة من الكافر غير ترك السكنى معه، فالبراءة منه: أن يعلن أنَّه لا يؤمن بمعتقداته بتعدُّد الآلهة، أو بإنكار البعث، أو باستحلال الحرام، أو بتحريم الحلال، أو غير ذلك، كما كانت دعوة النبي ﷺ إلى قيصر وأمراء النصارى وغيرهم من أهل الكتاب يختمها بالآية الكريمة من سورة آل عمران: ﴿**قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ٦٤].

(١) سبق تخريجه صـ٨٤.

QaradawiBooks.com

نشر الدعوة وتثبيت المستجيبين لها يستلزم البقاء في أرض الكفر:

وممَّا يدلُّ على مشـــروعية الإقامة في بلاد غير المســـلمين، ليحقِّق مقاصد مشروعة: أنَّ الإسلام فرض على المسلمين أن يبلِّغوا دعوتهم إلى العالميـــن، لتتحقَّق رحمة الله العامَّة ببعثة محمد الذي أرســـله الله رحمةً للعالمين. ومن لوازم ذلك: أن يقيم أناس في بلـــد الدعوة، ليعلِّموا مَن دخل في الإســـلام، ويثبِّتوهم، وهذا أمرٌ ضروري في توريث الإســـلام العملي للمســـلمين الجدد، ومن القواعـــد المتَّفق عليهـــا: أنَّ ما لا يتمُّ الواجب إلَّا به فهو واجب.

وهذا ما وقع بالفعل خلال التاريخ الإسلامي، وبه انتشر الإسلام في بلاد شـــتَّى، وثبت فيها، وتغلغل في حياة أهلها. ومنها بلاد لم يدخلها جيش إسلامي، ولم ينتشر الإســـلام بين ربوعها إلَّا بأخلاق المسلمين، وحسن تعاملهم، وحسن فَهمهم لحقائق الإسلام دون تعقيد أو تعسير.

ومن ذلك بـــلاد كبيرة معروفة، مثل إندونيســـيا وماليزيا، التي دخل الإسلام إليها عن طريق التجار المســـلمين الذين جاؤوا من حضرموت وما حولها، ولم يكونوا علماء ولا دعـــاة محترفين. فأحبَّهم أهل البلاد، وأحبُّوا دينَهم ودخلوا فيه أفواجًا، ومكثوا في ديارهم، وصاهروهم، حتى أضحوا جزءًا منهم، ولا زالت أنســـالهم إلى اليوم تعيش في تلك البلاد بوصفهم مواطنين أصليين فيها.

ومثل ذلك: كثير من البلاد الإسلامية في إفريقيا، انتشر الإسلام فيها عن طريق الاختلاط والمعاشرة، وعن طريق الطرق الصوفية.

ولو كان الحكم الدائم هو تحريم إقامة المسلم في بلاد أهل الكفر: ما وجد الإسلام سبيلًا للانتشار أبدًا، وسَدَدْنا عليه الطريق مختارين.

QaradawiBooks.com

هذا مع أنَّ أهل الكتاب نرى أمرهم أسهل وأيسر من غيرهم، لما قرَّر لهم الإسلام من أحكام خاصَّة بهم، تجعلهم أقرب إلى المسلمين من الوثنيين وأمثالهم، ومن ذلك: أنَّه أباح للمسلمين الزواج من نسائهم، وهذا خطوة تقدميَّة في التسامح مع المخالفين، قلَّما تسمح بها الأديان الأخرى.

وبهذا تنعقد المصاهرة بين الرجل المسلم وأهل زوجته، التي أمست شريكةَ حياته، وأمَّ ولده. وأمَّا أولادُه منها، فعليهم حقوق البرِّ لأمهم، وصلة الرحم لأجدادهم وجداتهم، وأخوالهم وخالاتهم، وأولاد أخوالهم وخالاتهم، وهؤلاء جميعًا لهم حقوق ذوي القربى، التي توجبها صلة الرحم التي أمر الله أن توصل: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥].

ومثل هذه الصِّلات تجعل متَّسعًا لهؤلاء ليقيموا مع أمهاتهم أو أجدادهم أو أخوالهم، إذا كان هناك مَن يعلمهم دينهم، وما يمكِّنهم من إقامة فرائضهم، ولا يخشى خطرًا على دينهم في بقائهم.

التجنُّس بجنسية البلاد الأوربية:

قد رأينا كيف أثار بعض علماء المسلمين شبهات حول إقامة المسلمين في البلاد الأوربية، بوصفها خارج دار الإسلام، وقد رددنا على هذه الشبهات، وفنَّدناها بالأدلَّة الشرعية، وبيَّنَّا أنَّ إقامة المسلم في البلاد الأوربية وغيرها لا حرج فيه شرعًا، بل قد يكون مطلوبًا طلب استحباب أو طلب وجوب، حسب الأهداف المتوخَّاة من هذه الإقامة.

بقي هنا موضوع آخر مرتبط بموضوع الإقامة، وهو التجنُّس بجنسية هذه البلاد الأوربية، من فرنسية أو بريطانية أو ألمانية أو غيرها.

QaradawiBooks.com

ومن المؤكَّد: أنَّ الذين يرفضـــون الإقامة في أوربا وغيرها من البلاد غير الإسلامية: يرفضون ـ من باب أولى ـ التجنُّس بجنسيتها.

وقد رأينا من العلماء والدعاة مَن يتشدَّد في ذلك غاية التشدُّد، ويحرِّم على المسلمين حمل أيَّ جنسيَّة غير إســـلامية. وقد بحثت ذلك الندوة الفقهية التي عقدت في الكلية الأوربية الإســـلامية في فرنسا، وحضرها عدد من الفقهاء المعتبرين، على رأسهم العلَّامة مصطفى الزرقا، والشيخ عبد الفتاح أبو غدَّة، والشـــيخ منَّـــاع القطَّان، وغيرهم. وكانت مســـألة التجنُّس بالجنسيَّة الأوربيَّة من المســـائل المعروضة، وقد انتهت الندوة إلى إجازتها، والردِّ على شبهات العلماء المشدِّدين فيها.

وقد كان من الذين تشدَّدوا في حمل الجنسية غير الإسلامية: الأستاذ حسن البنا رَحِمَهُ اللَّهُ، وله في ذلك فتوى منشورة معروفة قال فيها:

«مجرَّد تجنُّس المسلم بأية جنســـيَّة أخرى لدولة غير إسلامية: كبيرة من الكبائر، توجب مَقْتَ الله وشـــديدَ عقابه. والدليل على ذلك ما رواه أبو داود، عن أنس، قال رســـول الله ﷺ: «**مَن ادَّعى لغير أبيه، أو انتمى لغير مواليه؛ فعليه لعنة الله المتتابعة إلى يـــوم القيامة**»[1]، والآية الكريمة تشـــير إلى هذا المعنى، وهي قول الله تبارك وتعالى: ﴿**لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمـــران: ٢٨]؛ فكيـــف إذا صحبه بعد ذلك واجبات وحقـــوق تبطل الولاء بين المســـلمين، وتمزِّق روابطهم، وتؤدِّي إلى أن يكون المؤمن، في صـــفِّ الكافر أمام أخيه المؤمن، وإنَّ

(١) رواه أبو داود في الأدب (٥١١٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٩٨٧). والحديث رواه مســـلم في العتق (١٣٧٠)، من حديث علي بن أبي طالب، ولفظه: «... ومن ادعى إلى غير أبيه، أو انتمى إلى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين».

QaradawiBooks.com

خيرًا للمسلم أن يَدَع هذه الديار وأمثالها إن تعذَّرت عليه الإقامة فيها إلَّا بمثل هذه الوسيلة، وأرض الله واسعة: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠]، والله أعلم»[1] انتهى.

ولكنَّ الذي أراه هنا: أنَّ أخذ الجنسية من بلد غير إسلامي يعتبر أحيانًا خيانة لله ورسوله وللمؤمنين، وذلك في حالة الحرب بين المسلمين وغيرهم ممَّن يحاربون الإسلام؛ ولذا أفتى علماء تونس وقت الاحتلال الفرنسي أنَّ أخذ الجنسية الفرنسية يُعدُّ خروجًا ورِدَّة عن الإسلام؛ لأنَّه بتجنُّسه باع ولاءه لوطنه، واشترى ولاءه للمستعمر، فأفتى العلماء الكبار بكفر مَن فعل ذلك. لأنَّ هذه الفتوى سبيل من سبل المقاومة والاحتلال، وسلاح من أسلحة الجهاد، ولكن في الأوقات العادية فالمسلم الذي يحتاج للسفر إلى بلاد غير إسلامية تعطيه الجنسيَّة قوَّة ومَنَعة؛ فلا يحقُّ للسلطات طرده، ويكون له حقُّ الانتخاب في المجالس البلدية والتشريعية وانتخابات الرئاسة، ممَّا يعطي المسلمين قوَّة في هذه البلاد؛ حيث يخطب المرشحون ودَّهم، فحمل الجنسيَّة ليس في ذاته شرًّا ولا خيرًا، وإنَّما تأخذ الحكم حسب ما يترتَّب على أخذ هذه الجنسية من النفع للمسلمين أو الإضرار بهم.

ولكي نكون منصفين: فلا بد أن نضع فتوى البنا ومَن وافقه في إطار زمنها وبيئتها وظروفها، فقد يتشدَّد الأستاذ في أمور، نحن نتساهل فيها اليوم بمقتضى التطوُّر العالمي، واقتراب الناس بعضهم من بعض،

(١) مجلة الإخوان المسلمين، السنة الرابعة، العدد (٤)، صـ ١١ بتاريخ ١٤ صفر ١٣٥٥هـ الموافق ٥ مايو ١٩٣٦م، نقلًا عن سلسلة من تراث الإمام البنا الكتاب الرابع الفقه والفتوى صـ ٢٢٩، ٢٣٠، نشر دار الدعوة، الإسكندرية، ط ١، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

QaradawiBooks.com

وحاجة العالم بعضه إلى بعض، وتغيُّر صفة بعض الدول من دول استعمارية ظالمة للمسلمين، إلى دول حليفة أو شريكة للمسلمين. كما أنَّ الأستاذ في بعض ما كتبه كان في عنفوان الشباب، بما فيه من حماس وثورة، واندفاع في المواجهة. وللسنِّ حكمها، وللبيئة والزمن تأثيرهما، وعلى كلِّ حال؛ ليس في العلم كبير، وكلُّ أحد يؤخذ منه ويردُّ عليه، إلَّا مَن لا ينطق عن الهوى ﷺ.

هل يقبل الغرب المسلمين مواطنين كغيرهم لهم كل الحقوق؟:

في عامَّة البحوث الإسلامية حول اندماج الأقليات المسلمة في الغرب، وقبول فكرة «المواطنة» التي تتيح للمسلم التعايش مع أهل البلاد، واكتساب ما لهم من حقوق المواطن، التي يحصل عليها غيرهم بيسر وسهولة، ودون عوائق أو مكدِّرات.

أقول: في عامة البحوث يتَّجه الباحثون إلى أنَّ العقبة في الاندماج وقبول المواطنة هم المسلمون أنفسهم، الذين لا يقبلون بسهولة: فكرة الاندماج في غيرهم، وبخاصة الجيل الأول من المهاجرين، الذي يظلُّ مرتبطًا بوطنه الأول، حذرًا من الاندماج في وطنه الثاني، وربما كانت عنده أفكار متوارثة أو مفاهيم مغلوطة، يقبلها تقليدًا على أنَّها الدين الحقُّ، ولم يناقشها مع علماء راسخين يجمعون بين الأصالة والمعاصرة.

وهذا صحيح، وهو ما جعل «المجلس الأوربي للإفتاء والبحوث» منذ نشأته إلى اليوم، يصدر في كلِّ دورة من دوراته: بيانًا ينادي فيه المسلمين بوجوب التفاعل مع الأوطان التي يعيشون فيها، والاندماج في شعوبها، وعدم العزلة عنها، وضرورة المشاركة الإيجابيَّة في كلِّ ما يرقى بالوطن ويعمل على ازدهاره، وبهذا يظهر نشاطهم وتحرُّكهم وجِدُّهم

QaradawiBooks.com

واجتهادهم في خدمة الوطن، مع وجوب احتفاظهم بعقائدهم وشعائرهم وأخلاقيَّاتهم وآدابهم وقِيَمهم وتقاليدهم التي تُميِّزهم عن غيرهم، والتي فرضها عليهم دينُهُم. وبهذا تتحقَّق هـذه المعادلة التي قد يظنها بعضهم صعبة، وهي: استقامة بلا انغلاق، واندماج بلا ذوبان.

هذا هو موقف العلم والفكر الإسلامي من قضية الاندماج والمواطنة للأقليات المسـلمة في أوربة وفي الغـرب عمومًا، ولكـن غفل علماء المسـلمين وباحثوهم بصفة عامة عن موقف الغرب من قبول «مواطنة» المسـلمين معهم، واندماجهم فيهم. إذ كان المفهـوم من قبل: أنَّ العائق إنَّما هو عند المسلمين، ولم يكن معروفًا أنَّ أوربا والغرب لديهم عقبة أو عائق من قِبَلهم أنفسـهم. فقـد كانت الفلسـفة الليبرالية السـائدة عند الغربيين، وخصوصًـا أوربا الغربية، وأمريكا الشـمالية، ترحِّب باندماج المسلمين فيهم، وتجعل لهم كلَّ الحقوق الممنوحة للمواطنين الأصليين، ولغيرهم من المهاجرين إليهم من الجنس الأبيض، فلم يكن هناك ـ في الغالب ـ تمييز بين أبيض وأسـود وملوَّن، إنَّما هي حقوق الإنسـان من حيث هو إنسان، بغضِّ النظر عن لون جلده، أو لون عينيه، أو شكل أنفه، أو رأسـه، أو مدى نعومة شـعره! وسـاعد على هذا التوجُّه أنَّ الأفواج الأولى من المهاجرين لم يكن يعنيها إلَّا لقمة العيش، ولم تكن تهتمُّ بأمر الإسلام فكرًا أو سلوكًا.

ولكن في السـنوات الأخيـرة، وبعد ظهـور الصحوة الإسـلاميَّة ـ وخصـوصًا بعـد ١١ سـبتمبر ٢٠٠١م ـ تغيَّر الموقف كثيـرًا، وأضحى المسلمون يعاملون معاملة خاصة، فيها كثير من الإساءة والاستفزاز، بل التحقير والإيذاء أحيانًا: لا لشيء إلَّا لأنَّهم مسلمون.

QaradawiBooks.com

جاء ذلك نتيجة تغيُّر السياسات، التي تتبنَّاها الأنظمة الحاكمة، كما في سياسة جورج بوش وجماعة اليمين المسيحي المتطرِّف والمتصهين في أمريكا، وتوني بلير في بريطانيا، وإنجيلا ميركل في ألمانيا، وغيرهم. ومعظم ما حدث من تغيُّر نتيجة تأثير اللوبي الصهيوني الذي يغذِّي مخابرات البلاد الغربية بمعلومات كاذبة أو ملفَّقة حول المسلمين ودعوتهم، ويُعظِّم من شأن الغلاة والمتطرِّفين، وكأنَّهم أكثريَّة المسلمين، وما هم إلَّا فئة قليلة، ينبذها جمهور المسلمين.

ولا غرو أن تجد في أوربا أحزابًا يمينية متطرِّفة، تقوم برامجُها على إعلان العداء للمهاجرين، والسعيِ إلى طردهم، وتطهيرِ البلاد من وجودهم، أو على الأقل تحجيمهم وتقزيمهم وتهميشهم، حتى لا يكون لهم دور في المجتمع.

وأحيانًا نجد تغيُّر الموقف ضد المسلمين، نتيجة لتغيُّر «الفلسفة» السائدة والمؤثِّرة في التفكير العام، والتي يتبنَّاها الإعلام ويروِّج لها.

ظهور فلسفات رجعية في فرنسا:

مثال ذلك: ما حدث في فرنسا التي كانوا يعتبرونها «أم الحريات»، ومحضن الليبرالية، وسادنة حقوق الإنسان!

فقد ظهر فيها بعض هؤلاء الذين ينقدون فلسفات الماضي، ويعتبرونها فلسفة مثالية، لا تمتُّ للواقع بصلة، ويدعون إلى فلسفة جديدة، على النقيض من تلك الفلسفات القديمة، التي ضلَّلت العقل الفرنسي بما قدَّمته له من رؤى ومعارف غير حقيقيَّة. ولهذا عدَّها الباحثون والراصدون للأفكار «فلسفة رجعية» حقًّا، لا أثر لها إلَّا تأخير

QaradawiBooks.com

فرنسا إلى القرون الوسطى، على عكس ما نادى به فلاسفة التنوير أمثال فولتير وروسُّو، وفلاسفة الحرية والإنسانية مثل سارتر وفوكو وألتوسير.

كتب الكاتب التونسي «لسْعَد الواعر» في صحيفة «الصباح» التونسية مقالتين في (٣، ٢٠٠٧/٤/٤م) بعنوان «تساؤلات حول الفلسفة المعاصرة في فرنسا»، كشف فيها النقاب عن هذا الفكر أو هذه الفلسفة الرجعية الجديدة، التي يجسِّدها الفيلسوف «فيلكينكروت» الذي انتقل من اليسار إلى أقصى اليمين المتطرف، والذي سانده قلة من الفلاسفة والمثقفين الشبان مثل «برنارد هنري ليفي» و«أندريه غلوكسمان» وغيرهما.

سمَّى هذا الفيلسوف اتجاهه الرجعي الجديد «مراجعة ذاتية» وفيها هاجم التيار اليساري والتقدُّمي الذي كان ينتمي إليه، وزعم أنَّه كان أسطورة أو خرافة في تبنِّيه للمساواة المطلقة بين الأجناس والطبقات والأفراد.

وفي كتابه «هزيمة الفكر» الذي نشره سنة ١٩٨٧م أعلن صراحة عن اتجاه نقدي راديكالي، للفلسفة أو للثقافة المعاصرة، ووصفها بالتسيُّب والانحلال، وخصوصًا بسوء تشخيصها «الأخلاقي» وغير الواقعي لمشكلات المجتمعات الغربية المعاصرة، مثل سوء التفاهم بين الثقافات الموجودة في فرنسا، أو مشكل البطالة، أو مشكل الفشل المدرسي.

فإذا كان الحديث عن إخفاق العرب أو الأفارقة المهاجرين في «التأقلم» مع نموذج العيش الفرنسي، فإنَّ فيلكينكروت وغلوكسمان لا يرجعان ذلك إلى الحيف الطبقي الاقتصادي والاجتماعي الواقع والضاغط على هذه الأقليات المهاجرة، بل إلى «الذهنية» الرمزية العربية

QaradawiBooks.com

أو الإفريقية، التي لا يمكنها أن «تتأقلم» مع الذهنية الغربية المتقدِّمة علميًّا وسياسيًّا[١].

وكأنَّه يعيد نظرية تفاضل الأجناس من جديد، و«تفوق الرجل الأبيض» على غيره، وأنَّه خلق ليسود ويقود، وأنَّ غيره من الأجناس إنَّما خلقوا لينقادوا له ويتَّبعوه! وكانت هذه النظرية «اللاعلمية» قد عفا عليها الزمن، وجرفتها النظريات التي تسوِّي بين البشر في العقل والروح والخصائص الإنسانية.

على كلِّ حال، هذا هو الفكر الذي يروِّج له الإعلام في فرنسا، وهي نموذج لغيرها من دول الغرب. ومعنى هذا: أنَّ الغرب بعد أن كان قوَّة جاذبة للمسلمين إلى دياره، أصبح قوَّة طاردة لهم، وأضحى يضيق بهم ذرعًا، وكأنَّه يردِّد مجدَّدًا مقولة الأديب الغربي القديم: الشرق شرق، والغرب غرب، ولن يلتقيا!

وقفة للتأمل:

ولكن يجب علينا للإنصاف وللوصول إلى الحقيقة: أن نقف هنا وقفة للتأمل والتعمُّق في القضية، فهل فكر هؤلاء «الرجعيين» يمثِّل الفكر العام في أوربا وأمريكا؟ أو هو يمثِّل شريحة معيَّنة من أهل الفلسفة أعماهم التعصُّب عن رؤية الحقيقة، ولم ينظروا إلى الأمر نظرة أعمق، تتجاوز الغلاف أو القشرة الظاهرة للإنسان والأشياء، وتتأمَّل في الإنسان من حيث هو إنسان، فإذا هو جوهره واحد، وإن اختلفت الأوطان والألوان والألسنة، أو اختلفت الأشكال والمستويات والطبقات.

(١) انظر: جريدة الصباح اليومية التونسية يومي ٣، ٤ إبريل ٢٠٠٧م مقالة الكاتب لسعد الواعر: تساؤلات حول الفلسفة المعاصرة في فرنسا.

QaradawiBooks.com

أكبر ظنِّي: أنَّ الذي يسود في النهاية هو النظرة الإنسانيَّة، والفكرة الكونيَّة، التي لا تركِّز على ما يفرِّق الناس ويميِّزهم بعضهم عن بعض، بل على ما يجمع بينهم، وهو كثير. والبقاء دائمًا للأصلح، والقرآن يؤكِّد ذلك فيقول: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

ولا ريب أنَّ الواقع يفرض نفسه، فقد أصبح المسلمون جزءًا من الواقع الأوربي، وغدا منهم أعضاء في البرلمانات المختلفة في عدد من الأقطار الأوربية، ومنهم أعضاء في مجلس العموم البريطاني، وفي مجلس اللوردات، وأعضاء في الأحزاب الحاكمة أو المعارضة، بل بات منهم مَن يتبوَّأ منصب الوزارة، ولم يعُد من الممكن ـ كما أنَّه ليس من المفيد قطعًا ـ التفكير في محو الوجود الإسلامي من أوربا، أو من أمريكا، ولا سيما أنَّ بعض هذا الوجود أصيل وليس مهاجرًا.

على أنَّ من الخير كلِّ الخير: أن يظل هذا التنوُّع قائمًا، فالكون كلُّه قائم على ظاهرة التنوع، أو ما يسمِّيه القرآن «اختلاف الألوان»[1]، وبهذا تتلاقح الثقافات، وتتفاعل الحضارات، ويأخذ بعضها من بعض، كما يعطي بعضها بعضًا. ويكفي الجميع وجود الأصل الإنساني المشترك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

---

(١) إشارة إلى مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

QaradawiBooks.com

مرحلة ما بعد ١١ سبتمبر استثنائية:

وهذه المرحلة التي حدثت بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١م لا ينبغي أن تلغي التاريخ كلَّه، ولا أن تحكم على المستقبل كلِّه. إنَّها فترة استثنائية، لا بد أن تنتهي، وتعود المياه إلى مجاريها الطبيعية، كما يقولون.

وعلى المسلمين في أوربا ـ وفي أمريكا كذلك ـ أن يصبروا على مواجهة هذه الفترة بما يصاحبها من مضايقات وسلبيات، ويُثبتوا أنَّهم أصحاب رسالة عالمية، وأنَّ لدينهم مفاهيم وقِيَمًا دينية وخلقية تجعلهم يتعايشون مع جيرانهم من أهل هذه البلاد بأخلاق المؤمنين، وفضائل الملتزمين، وبخاصَّة أنَّ أهل هذه البلاد في نظر المسلمين: «أهل كتاب» خصَّهم الإسلام بمعاملة متميِّزة دون سواهم من غير المسلمين، حتى شرع للمسلم أن يصاهرهم ويتزوَّج منهم.

ومن هنا لا يجد المسلم الفَاقِه لدينه: صعوبة في الاندماج في المجتمع الغربي، والامتزاج بأهله، والتأقلم معهم، دون أن يفرِّط في دينه وما فرض الله عليه من واجبات، وما حظر عليه من محرَّمات.

والأصل في المجتمعات الغربية اليوم: أنَّها مجتمعات «علمانية». وذلك بعد أن اصطدمت هذه المجتمعات بالكنيسة الغربية التي كانت تمثِّل سُلطة الدين، وقد وقفت مع الجمود ضد التحرُّر، ومع الظلام ضد النور، ومع الخرافة ضد العلم، ومع الإقطاع ضد الفلاحين، ومع الملوك ضد الشعوب، فلا عجب أن ثارت عليها الجماهير، وتمرَّدت على سلطانها، وجرَّدتها من سيف السلطة الزمنيَّة، وقصرتها على السلطة الرُّوحية، وبهذا فصلت الدين عن الدولة أو المجتمع، أي عن الكنيسة. وكانت مصلحة تلك المجتمعات في اختيار مبدأ العلمانية. أمَّا مجتمعاتنا

QaradawiBooks.com

فلم تكن في حاجة قط إلى مثل ذلك الاختيار، لأنَّ الوضع غير الوضع، والتاريخ غير التاريخ.

والمفهوم أنَّ العلمانية الليبرالية «محايدة» مع الدين، لا تؤيِّده ولا تعاديه، ومعنى ذلك: أنَّ المسلم يستطيع أن يحيا بعقيدته، ويؤدِّي عباداته، ويجتنب ما حرَّم الله عليه، دون أن يضغط عليه أحد، أو يُكرهه على ترك مأمور، أو فعل محظور. وهذا هو ما تنصُّ عليه الدساتير ومواثيق حقوق الإنسان، من توفير الحرية الدينيَّة لكلِّ الناس.

بيد أن هناك بعض العلمانيات لا تلتزم بموقف الحياد من الدين كما هو الأصل المقرَّر في ذلك، بل تتدخَّل أحيانًا بما ينافي الحريَّة الدينيَّة، والحريَّة الشخصيَّة، وهما حريَّتان مقدَّستان عند الفلسفات والشرائع المختلفة.

قضية الحجاب في فرنسا:

من أمثلة ذلك: ما وقع في فرنسا بالنسبة لقضية «الحجاب» مع المسلمات، ولا سيما الطالبات في المدارس الفرنسية، ومنعهنَّ ـ قانونًا ـ من دخول المدرسة بالحجاب.

وحجَّتهم في ذلك: أنَّ «الحجاب» رمز ديني، ولا يجوز اتِّخاذ الرموز الدينيَّة في المدارس، لما فيها من تمييز بين الطالبات بعضهنّ وبعض بسبب الدين.

وقد رددتُ عليهم في ذلك بما يبطل هذه الحجَّة، وقلتُ لهم: إنَّ الحجاب ليس رمزًا دينيًّا بحال من الأحوال، لأنَّ الرمز الديني ما ليس

QaradawiBooks.com

له وظيفة إلَّا الإعلان عن دين صاحبه، مثل وضع الصليب على الصدر ونحو ذلك. أما الحجاب فله وظيفة معلومة، وهي ستر جزء معيَّن من جسد المرأة مثل الرأس والعنق والنحر الذي يحرِّم الإسلام كشفه أمام الرجال الأجانب. ولهذا لا تلتزم المسلمة بالحجاب أمام النساء، ولا أمام الرجال المحارم، والرمز الديني يلبس أمام الرجال والنساء جميعًا.

على أنَّ الصليب ـ وهو رمز ديني باتفاق ـ لم يمنع في مدارس فرنسا، إنَّما منع فقط الصليب الكبير، ولا حاجة لامرأة في لبسه.

وعندما ثارت قضية الحجاب في فرنسا، واشتدَّ أُوراها، كتبتُ رسالة إلى الرئيس شيراك، بيَّنتُ له فيها: أنَّ منع المسلمة من الحجاب ينافي المبادئ التي قامت عليها الثورة الفرنسية، وهي: الحرية والإخاء والمساواة.

أما منافاتها لمبدأ «الحرية»، فلأنَّه ضد الحرية الدينية، والحرية الشخصية.

أما الحرية الدينية، فهو يُلزم المسلمة أن تخرج عن تعاليم دينها، وأن تخالف أمر ربِّها في القرآن الكريم الذي قال: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

وأما الحرية الشخصية، فلأنَّها تتدخَّل في زِيٍّ ارتضته المرأة لنفسها مختارة، فلماذا نجبرها على خلعه؟ في حين تلبس الأخريات ما يشفُّ وما يصفُ، وما يكشف عن أجسادهنَّ ممَّا يسمَّى «الميني جيب» و«المكروجيب» ولا يتدخَّل أحد في شأن ما يلبسنه!

QaradawiBooks.com

وأما منافاتها لمبدأ «الإخاء»، فلأنَّه يشعر المسلمة بأنَّها «مضطهدة» في دينها، وأنَّها مجبرة على مخالفة أمر ربِّها، وأنَّ الأخريات لهنَّ حرية التبرُّج، وليس لها حرية التستُّر والاحتشام. وهذا الشعور ينعكس على نفسيَّتها ضيقًا وتبرُّمًا بالمجتمع من حولها، وهذا لا يحقِّق الإخاء الذي دعت إليه ثورة فرنسا.

وأما منافاته لمبدأ «المساواة»، فهذا واضح، فأين المساواة بين طالبة تلبس ما تحبُّ وتذهب به إلى مدرستها، وأخرى يفرض عليها زيٌّ لا ترضاه، وإذا خالفت ذلك فُصلت من المدرسة؟!

موقف المجلس الأوربي للإفتاء:

وكان ممَّا وفِّق إليه إخواننا المسلمون في أوربا: أنَّهم عرفوا طبيعة عصرهم، وأنَّه عصر المؤسَّسات لا عصر الأفراد، فالأفراد ـ مهما تكُن عبقريتهم ـ زائلون وراحلون، والمؤسَّسات هي التي تستقرُّ وتبقى.

ولهذا أنشؤوا المساجد والمدارس والمعاهد والأندية والجمعيات والمراكز المختلفة، لسدِّ حاجاتهم وتلبية مطالبهم المتعدِّدة والمتنوِّعة، الرُّوحية والمادية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية والرياضية والترفيهية.

ومنها: المجلس الأوربي للإفتاء والبحوث، الذي سدَّ ثغرة مهمَّة في العلاج الفقهي لقضايا الأقليات المسلمة المتجدِّدة، والتي قد تختلف كثيرًا عن قضايا المجتمعات الإسلامية الخالصة، والتي تحتاج إلى اجتهاد جديد، جزئي وكلي، انتقائي وإنشائي، فردي أو جماعي. والمجلس بتكوينه المتنوِّع يمثِّل هذا النوع من الاجتهاد الجماعي المتخصِّص.

QaradawiBooks.com

وهو يعمل على مساعدة المسلمين في أوربا على العيش بدينهم وأخلاقياتهم مع جيرانهم من غير المسلمين، دون أن يفرِّطوا في أحكام شريعتهم، ما داموا متمسِّكين بالأصول، مراعين للمقاصد، مُتَحرِّين رضا الله سبحانه.

ولقد حرص المجلس منذ إنشائه على أن يحثَّ الأقليَّات في كلِّ بلد: أن يشاركوا في خدمة الوطن الذي يعيشون فيه، ويعتبروا أنفسهم جزءًا منه، ويتعايشوا مع أهله، ويتفاعلوا مع أبنائه، بكلِّ صفاء وإخلاص، متمسِّكين بقِيَمهم، معتزِّين بإيمانهم، مؤدِّين لشعائرهم، بعيدين عن كلِّ غلوٍّ وتفريط. كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة: ١٤٣].

* * *

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

الفهارس العامة

- فهـــرس الآيات القرآنيـــة الكريمة.
- فهرس الأحاديث النبوية الشـــريفة.
- فهرس الموضوعات.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الفاتحة		
﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾	٦	٤١
سورة البقرة		
﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا ﴾	٢٩	٢٥
﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةً ﴾	٣٠	٢٥، ٦٧
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾	١٠٤	٤١
﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُ ۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ ﴾	١١٥	٧٠
﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَـٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾	١٤٣	١٠٣
﴿ وَقَـٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾	١٩٣	٧٠
﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ﴾	٢١٥	٥٩
﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ ﴾	٢٤٦	١٩
سورة آل عمران		
﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَـٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾	٢٨	٩١

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾	٦٤	٨٨
﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾	١٠٣	٤٩
سورة النساء		
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾	١	٦٦، ٩٨
﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾	٣٦	٢٦
﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم ﴾	٦٦	١٨
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ﴾	٩٧	١٦، ٦٧، ٧٥
﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً ﴾	٩٨	١٦، ٧٥
﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾	٩٩	١٦، ١٧، ٧٥
﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾	١٠٠	٦٨، ٩٢
سورة المائدة		
﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾	٥١	٤٤، ٤٧، ٨٦
﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾	٥٥، ٥٦	٤٠
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾	٦٧	٧٨
سورة الأنعام		
﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾	٦٥	٦٧
﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾	٩٨	٦٦
﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾	١٦٢، ١٦٣	٥٥

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الأعراف		
﴿ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴾	٢٤	٤، ١٣، ٢٥
﴿ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا ﴾	٨٥	٥١
﴿ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ ﴾	١٢٨	٧٠
﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعٗا ﴾	١٥٨	٧٩
سورة الأنفال		
﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ ﴾	٣٩	٧٠
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ ﴾	٧٢	٣٥، ٣٦، ٨٣
﴿ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾	٧٥	٩٠
سورة التوبة		
﴿ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ ﴾	٢٣	٤٧
﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ ﴾	٢٤	٥٣، ٧٨
﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَا ﴾	٢٨	٦٨
سورة هود		
﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا ﴾	٦١	٤، ٢٥
﴿ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾	٨٨	٨
سورة يوسف		
﴿ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾	٩٩	٧٧

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الرعد		
﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾	١٧	٩٨
سورة إبراهيم		
﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾	٤	٨٠
﴿ بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ ﴾	٣٧	١٥
سورة النحل		
﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾	١٠٦	٧٥
﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾	١١٢	٧٧
﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾	١١٥	٧٥
سورة طه		
﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾	٥٠	١٤
﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾	١١٨، ١١٩	١٣
سورة الأنبياء		
﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾	١٠٧	٧٩
سورة الحج		
﴿ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ﴾	٢٥	٦٨
﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾	٤٠	٢٠، ٥٢
﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ ﴾	٥٨، ٥٩	٥٣
﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾	٦٥	٦٧

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة النور		
﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾	٣١	١٠١
سورة الفرقان		
﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾	١	٧٩
سورة الشعراء		
﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾	١٠٥، ١٠٦	٥٠
﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ... ﴾	١٢٣، ١٢٤	٥٠
﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾	١٤١، ١٤٢	٥٠
﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾	١٦٠، ١٦١	٥٠
﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾	١٧٦، ١٧٧	٥٠
سورة القصص		
﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾	٤	٦٧
سورة ص		
﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾	٧١، ٧٢	٢٥
سورة الزمر		
﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾	٣	٧٠
سورة الحجرات		
﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾	١٠	٤٠، ٤١، ٤٣، ٤٩
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ ﴾	١٣	٤، ٦٧

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة المجادلة		
﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾	٢٢	٤١
سورة الحشر		
﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ ﴾	٨	٥٣
سورة الممتحنة		
﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ﴾	٨	٤، ٦٢، ٨٧
﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ﴾	٩	٨٧
سورة المزمل		
﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾	٢٠	٧٧
سورة قريش		
﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾	٤	٧٧

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

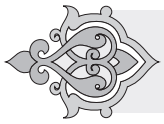

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

الحديث	رقم الصفحة
أ	
أبايعك على ألَّا تشرك بالله شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة	٨٤
إذا التقى المسلمان بسَيْفَيهما، فالقاتل والمقتول في النار	٤٤
اللهم حبِّبْ إلينا المدينة كحُبِّنَا مكة أو أشد!	٥
اللهمَّ حبِّب إلينا المدينة، كما حبَّبتَ مكة أو أشدَّ...	١٥
أنا بريء من كلِّ مسلم يقيم بين أظهر المشركين	٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤
إنَّما بُعثتم مُيَسِّرين، ولم تبعثوا مُعَسِّرين	٧٩
إنما هو مناخ من سبق إليه	٦٨
أو يفارق المشركين إلى المسلمين	٨٨
ب	
بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي رسول الله ﷺ ...	٨٥
ت	
ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم، كمثل الجسد	٤٩
س	
سبابُ المسلمِ فسوق، وقتاله كُفْر	٤٤

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ل	
لا أدري بأيِّهما أُسَرُّ: بفتح خيبر، أم بقُدُوم جعفر	٨٠
لا ترجعوا بعدي كُفَّارًا يضرب بعضُكم رقاب بعض	٤٤
لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونيَّة، وإذا استُنفرتم فانفروا	٨٤، ٨٨
لا يَقْبَلُ الله من مشرك بعدما أسلم عملًا أو يفارقَ المشركين إلى المسلمين	٨٥
لا ينبغي لمؤمن أن يذلَّ نفسه!. قالوا: وكيف يذلُّ نفسه	٧٥
لعلَّك أنْ تخلف حتى ينتفع بك أقوام، ويضر بك آخرون.	٢٢
ليس بمؤمنٍ مَن بات شبعانَ، وجارُه إلى جنْبه جائع	٢٦
م	
ما أطيَبَكِ من بلد، وأحبَّكِ إليَّ! ولولا أن قومي أخرجوني منك	٥
المسلم أخو المسلم	٤٠، ٤٩
المسلمون يسعى بذمَّتهم أدناهم، وهم يدٌ على مَن سواهم	٤٠، ٤٣
مكة حرام لا يحل بيع رباعها	٦٨
مَن ادَّعى لغير أبيه، أو انتمى لغير مواليه	٩١
مَن جامع مشركًا، وسكن معه، فهو مثله	٨١، ٨٥
مَن قاتل تحت راية عُمِّيَّة، يغضب لعَصَبَة، أو يدعو إلى عَصَبَة	٥٨
من لم يُصْبِحْ ويُمْسِ ناصحًا لله ولرسوله ولكتابه	٥
... المؤمنون تتكافأُ دماؤهم، ويسعى بذِمَّتِهم أدناهم	٥
و	
والله، إنك لأحبُّ بلاد الله إلى الله، وأحبُّ بلاد الله إليَّ	١٦
وتنصح للمسلم، وتَبْرَأ من الكافر	٨٤
ومَن لم يصبح ناصحًا ـ أي مخلصًا بارًّا ـ لله ورسوله	٤٣

QaradawiBooks.com

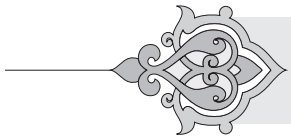

فهرس الموضوعات

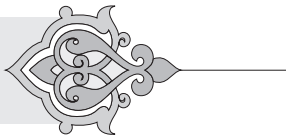

- **من الدستور الإلهي للبشرية** ٤
- **من مشكاة النبوة الخاتمة** ٥
- **مقدمة** ٧

غير مرخصة للطباعة

تمهيدات حول الوطن والمواطنة

- ❖ **تعريف الوطن والمواطنة** ١١

الوطن والمواطنة في اللغة ١١

- ❖ **الوطن والمواطنة** ١٣

الحنين إلى الوطن فطرة ١٥

البدْوُ والوطن ١٧

محنة الإخراج من الوطن ١٨

هل يمكن تغيير الوطن؟ ٢٠

هل يمكن تعدُّد الوطن؟ ٢١

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الفصل الأول:

مواطنة المسلم وغير المسلم داخل المجتمع المسلم

❖ **هل للأرض بالمعنى الجغرافي أهمية في نظر الإسلام؟** ٢٥

المواطنة في العهد النبوي ٢٧

نص الوثيقة (دستور المدينة) ٢٨

وقفات مع دستور المدينة ٣٣

المعاني الأساسية لتكوين الأمة في وثيقة المدينة ٣٤

اتفاقية الصلح مع نصارى نجران ٣٧

الوطن المحلي ودار الإسلام الكبرى ٣٩

الانتماء بين الماضي والحاضر؟ ٤١

صور رائعة في الفقه الإسلامي ٤٢

غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ينتمون إلى دار الإسلام ٤٦

الأخوة الوطنية ٤٨

متى تحدث الإشكالية في قضية الوطنية والمواطنة ٥١

٣ ـ عند تعارض الولاءات والانتماءات ٥١

٤ ـ اقتران الوطنية بالعلمانية ٥٣

٥ ـ الغلو في الوطنية حتى تصبح بديلًا عن الدين ٥٥

٦ ـ عندما تتحوَّل الوطنية إلى عصبية جاهلية ٥٧

❖ **رجال الإصلاح وموقفهم من المواطنة** ٥٩

٣ ـ حسن البنَّا وموقفه من الوطنية والمواطنة ٦٠

QaradawiBooks.com

الوطنية المقبولة والوطنية المردودة ٦١
الوحدة الوطنية واختلاف الدين ٦٢
مصر في نظر حسن البنا ٦٢
٤ ـ موقف المودودي من الوطنية والمواطنة ٦٤
نقد عناصر القومية (والوطنية) من ناحية العقل ٦٤
٣ ـ النَّسلية أو العنصرية ٦٤
٤ ـ الوطنية ٦٥
نظرية الإسلام الشاملة الجامعة ٦٦
الدين لله والوطن للجميع ٦٩

الفصل الثاني:

مواطنة المسلم في غير المجتمع الإسلامي (الأقليات المسلمة)

❖ **موقف المسلمين في غير المجتمع الإسلامي** ٧٣
حكم الإقامة في بلد غير إسلامي ٧٤
إقامة المسلمين المهاجرين إلى الحبشة في ظلِّ حكم غير إسلامي ٨٠
شبهات تثار حول الإقامة في بلاد غير المسلمين ٨١
٣ ـ حديث: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين» ٨٢
٤ ـ حديث: «مَن جامع مشركًا وسكن معه، فهو مثله» ٨٥
نظرة في دلالة الأحاديث ٨٧
نشر الدعوة وتثبيت المستجيبين لها يستلزم البقاء في أرض الكفر ٨٩
التجنُّس بجنسية البلاد الأوربية ٩٠

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

هل يقبل الغرب المسلمين مواطنين كغيرهم لهم كل الحقوق؟ ٩٣
ظهور فلسفات رجعية في فرنسا ٩٥
وقفة للتأمل ٩٧
مرحلة ما بعد ١٣ سبتمبر استثنائية ٩٩
قضية الحجاب في فرنسا ١٠٠
موقف المجلس الأوربي للإفتاء ١٠٢

- **فهرس الآيات القرآنية الكريمة** ١٠٧
- **فهرس الأحاديث النبوية الشريفة** ١١٣
- **فهرس الموضوعات** ١١٥

* * *

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com